لا تعشق لعنتي

الطبعة الأولى: 2020
الكتاب: لا تعشق لعنتي
الكاتب: طارق عبد الفتاح
تصميم الغلاف: محمد محسن
تدقيق لغوى: هبة ممدوح
إخراج فنى: محمود عنتر
رقم الإيداع: 7965 / 2020
الترقيم الدولى: 9 - 45 - 6689 - 977 - 978

كاريزما للنشر والتوزيع

٩ شارع المغفرة المتفرع من شارع العشرين
بجوار مدارس حسام الدين الخاصة - فيصل - الجيزة
موبايل: 01126026691 - 01061813345
01009823984

لا تعشق لعنتي

روايـــــة

بقلم/ طارق عبدالفتاح

الإهـــداء

إلى أبي وأمي أولًا وأخيرًا ثم إلى أميراتي الثلاث؛ إسراء، آلاء وأشرقت، ربّ احفظهم بحفظك من كل سوء واسترهم بسترك يا كريم.

إلى زوجتي قرة فؤادي؛ جزاك الله عني خير الجزاء عن وجودك بجانبي وتحملك لي ولأبنائي؛ فلك مني كل الحب والتقدير، ثم آخر العنقود أحمد اللهم احفظه بحفظك واجعله صالحًا وسندًا لأسرته إنك ولي ذلك والقادر عليه.

إهداء خاص للكاتبة الواعدة، رقيقة الإحساس والقلب الأبيض والقلم الراقي، الأخت الكريمة سعاد عبد اللاه لمعاونتها الجليلة لي في ظهور تلك الرواية للنور؛ فلقد كانت لي نعم الأخت ولم تبخل علي بأي نصيحة؛ فلك مني كل تقدير واحترام.

تنويه

(كل أحداث هذه الرواية هي من وحي خيال المؤلف، وأي تشابه بين أحداثها وبين أحداث مشابهة لها في الواقع وخاصة غرق العبارة المصرية في بدايات القرن الواحد والعشرين؛ هو محض صدفة ولا تنتمي للواقع بصلةٍ لا من قريبٍ ولا من بعيد؛ لذا وجب عليَّ التأكيد على مخالفة الرواية للواقع نهائيًا.

أنا لا أزايد على أهالينا ولا أستغل آلامهم في فقدان ذويهم من أجل شهرة أو من أجل كسب أو ربح غير مشروع بالمتاجرة بأوجاعهم ومُصابهم.

رحم الله كل شهداء العبارة المنكوبة وألهَمَ ذويهم الصبر والسلوان)

المؤلف: طارق عبدالفتاح

الفصل الأول
صالة وصول

خارِج صالة الوصول بمطار القاهرة الدولي، حقائب السفر تعبت من كثرة الترحال سيدتي؛ فلا وجود لهذا الشاطىء المزعوم، فمنذ سنوات كثيرة لا تسعفني الذاكرة وسط كل تلك الرحلات لحصرها وأنا أبحث عن هذا البر الذي أشك كثيرًا في احتمالية كونه على خارطة هذا العالم؛ ألا وهو بر النجاة وميناء الاستقرار.

بتلك الكلمات الرتيبة البائسة أنهى دكتور عادل حواره لإحدى قنوات الفضائيات التي تلاحقه على الدوام؛ لمعرفة كل ما يدور بخاطره من ذكريات رحلاتهِ، وعن كل جديد في مواكبة أبحاثه في الطب، أطلق على وجهه المجهد ابتسامة لطيفة ليحيي بها المذيعة، وأطلق لساقيه العنان متجهًا نحو سيارته؛ فاستقبله فاتحًا له باب السيارة سائقه الخاص، وركب على الفور وأغلق السائق الباب وركب السائق أمام مقود السيارة، ونظر إلى الدكتور في المرآة أمامه بتساؤل دون سؤال؛ فأشار إليه عادل أن انطلق؛ فانطلق السائق مسرعًا تلتهم السيارة الطريق متجهًا نحو الديار، ودكتور عادل يستند على المقعد

الخلفي شاردًا، وما إن عبرت السيارة بضعة أميال؛ سأله السائق مرة أخرى: «إلى أين يا دكتور ؟»

فكّر قليلًا وهو مُغلِقٌ عينيه، ثم أردف قائلًا بعد أن أطلق تنهيدة حزينة: «أتدري يا عم عارف؟ أنا لا أعرف إلى أين أذهب؛ فلقد مرّ بي العمر سريعًا دون أن ألاحظ أني ما زلت في تلك الحياة وحيدًا رغم كل جولاتي بمشارق الأرض ومغاربها، لا أنيس يؤنس وحدتي، ولا بارقة أمل تضوي من نبراس حياتي من بعيد تحاول أن تدفئ لي برودة الفراش بجانبي، فلا ولد أضمه إلى صدري وقلبي، وأحتويه بكلتا ذراعي، وألتمس منه الحنان والراحة ولا بنت، لا وألف لا يا عم عارف»، ثم أطلق من بين خلجات صدره تنهيدة أكبر ممتلئة بالأنين.

كل هذا والعم عارف ينظر إلى الطريق بجمود ولا يبدو عليه التأثر من أي كلمة قد قالها عادل وكأنه حجرٌ أصم، أو أنه اعتاد على أن يستمع إلى هذا الحديث كلما ذهب أو عاد عادل من إحدى رحلاته المتكررة، شرد عادل بخياله بعيدًا، وفترة من الصمت طويلة لا يقطعها إلا صوت السيارة وهي تلتهم طرقات الأسفلت من تحت إطاراتها... وفجأة يضغط عارف على مكابح السيارة؛ ليصرخَ إطارها من قوة الضغط من قدمه على مكابحها؛ فتوقفت السيارة

على بعد أمتار قليلة من زحامٍ شديدٍ لكثيرٍ من السيارات ووجود حشد كبير من الناس يجري في كل مكان بإتجاه نقطة واحدة مع تعالي صاخب لأصوات بعض الرجال، وصراخ بعض النساء، والزحام شديد على الطريق حول الحطام المتناثر في كل مكان لبقايا السيارة المهشمة؛ فيا له من مشهد تقشعر منه الأبدان.

وهنا يقف عارف مرغمًا بالسيارة وقوفًا تامًا، ويفزع الدكتور عادل من شروده وينظر إلى الحادث الأليم.

الفصل الثاني

(الحــادث)

لحظــات من الذهــول قصيرة مرت على وجــه الدكتور عادل، بينمــا كان عم عــارف يتمتم ببضع كلمات مثــل: «لاحول ولا قوة إلا بالله... اللهم اســترها على الجميع»، تنبه عادل سريعًا وأمسك بحقيبته من جواره، ونزل مســرعًا من الســيارة واتجه نحو الحادث الأليم مجاهدًا، شــقَّ جموع الناس من حوله تارة ودافعًا لآخرين تارة أخرى قائلًا:

«من فضلكم، افسَحوا لي الطريق، من فضلكم أنا طبيب»

تفرق بعض الناس من حوله وجاهد مرة أخرى لدفع آخرين، «الحادث أليم حقًا»؛ قالها أحد المشاهدين لمن بجواره.

وقال آخر ممن لم يرَ ما حدث:

– هل رأيت الحادث؟

– نعم، رأيته.

ودون أن يسأله أحد عما حدث؛ قال شارحًا على الفور شاهد العيان: «لقد كانت سيارة النقل مسرعة وهي تترنح يمينًا ويسارًا وكأن السائق لم يعد يتحكم في مسارها، وكانت السيارة الميكروباص في

الجهة المقابلة؛ فحاولت جاهدة أن تمهد لها الطريق وأن تتجنب الاصطدام بها، ولكنها لم تنجو من براثن تلك النقل الشرسة والي....»

هنا قطع الشاهد حديثه عندما تهادى إلى مسامعه صراخ الدكتور عادل بنفاذ صبره:

«من فضلكم ابتعدوا وتفرقوا من حولي؛ فلا أستطيع رؤية المصابين»

تهكم أحد الحاضرين قائلًا: «يا دكتور، قل الموتى؛ فإن العشرين مصابًا في السيارة موتى ولا حول ولا قوة إلا بالله»، وفي تلك اللحظة كان عادل مائلًا على صدر إحدى النساء يصغى إلى أي شيء يدل إلى وجود حياة بها، ثم التفت إلى من خلفه من الجمع وهتف سريعًا وعاليًا:

«سيدة بها نبض، هنا مصابة تنفسها ضعيف»، ثم وجه كلامه إلى أحد الأشخاص ممن كان يساعده في إخراج الضحايا من السيارة المنكوبة: «هل استدعى أحد الإسعاف»؟

فتكلم الجميع من حوله؛ فلم يفهم ما يقولون؛ فجثا على ركبتيه، وانحنى إلى السيدة على أسفلت الطريق، وتحسس عظام جسدها بخبرة الجرّاح؛ للتأكد من عدم وجود كسور تؤثر عليها عند حملها من على الأرض، ثم أمرَ عددًا من الرجال أن يحملوا المصابة بطريقة

صحيحة، والتوجه بها إلى سيارته، وتم وضعها بالداخل ثم أغلق باب السيارة الخلفي، ووجه كلامه إلى سائقه: «بسرعة من فضلك يا عم عارف، اذهب إلى المستشفى وبلغ دكتور حفني لعمل اللازم، وسوف أتأكد من باقي المصابين، وأعود في سيارة تاكسي»، ثم ربت على سقف السيارة مقرعًا إياها براحة يده بإشارة منه إيماءً؛ لأن ينطلق عارف على الفور وقال: «هيا بسرعه رجاءً»

انطلق عارف بالمصابة على الفور، وعاد عادل إلى باقي الضحايا، وللأسف لم يجد أي ناجّ آخر ، وفي هذه اللحظة توقفت سيارة الإسعاف ومن خلفها سيارة الشرطة؛ فقام عادل معتدلًا وأفسح المجال لرجال الإسعاف للقيام بوظيفتهم، وتوجه إليه ضابط شرطة بعد أن أشار أحد المتواجدين إلى وجود الدكتور عادل في الحادث؛ فتوجه من فوره لعادل مصافحًا إياه، وقام بتعريف نفسه له، الضابط:

– دكتور عادل، أنا النقيب سالم من نجدة القاهرة، هلا سمحت أن تقيِّم لي الوضع بصفتك رجل ذو خبرة؟

عادل مصافحًا إياه قائلًا:

– أهلا سيادة النقيب، ليس هناك أي شيء لأضيفه لك؛ فأنت ترى الوضع المؤسف، فلا ناجين من جميع ركاب السيارة إلا سيدة واحدة فقط.

فالتفت سالم باحثًا عن الناجية باستفسار قائلا: «أنا لا أرى أي ناجٍ، هلا أشرت لي من فضلك عليها لعلي أعرف منها ملابسات الحادث وأقوم بأخذ أقوالها»؟

أدرك الدكتور عادل معقبًا بكل أسفٍ: «لقد نقلُتها إلى سيارتي؛ لأن حالتها سيئة للغاية، وقد تأخرت الإسعاف؛ فأرسلتها مع سائقي إلى المستشفى الخاصة بي»، وأثناء حديثه يضع يديه في أحد جيوب بدلته؛ ليخرج منها كارت، ويكمل حديثه قائلًا: «وهذا الكارت به اسم المستشفي ويشرفني أن أنتظرك لأخذ أقوالها؛ هذا إن كُتب لها النجاة! فحالتها بالفعل حرجة» أمسك النقيب بالكارت من الدكتور وهو مدرك ما يقول وسردَ قائلًا: «عفوا يا دكتور عادل؛ فأنت أشهر من النار على العلم، يمكنك الذهاب إلى مشفاك إن شئت، وبإذن الله سأحضر إليها لأخذ أقوالها عن قريب»؛ فشكره عادل ثم انصرف حاملًا حقيبته، ووقف على قارعة الطريق مشيرًا إلى إحدى السيارات التاكسي وركب قائلا للسائق: «من فضلك، مستشفى الحياة»

انطلق التاكسي إلى وجهته المنشودة، وأما عن دكتور عادل؛ كان لا يعرف أنه متجهًا حيث ستغير هذه المصابة مجرى حياته بالكامل.

الفصل الثالث
(الغيبوبـة)

في إحدى غرف المستشفى الفاخرة التى يمتلكها الدكتور عادل، جلســت ممرضة باليونيفورم البمبي المرصع بشــعار: (مستشــفى الحياة) على كرســي مقابل لســرير الفتاة المصابة بالحادث التى ما زالت راقدة في غيبوبتها متجاوزة الاثنى عشر يومًا.

الفتاة جميلة جدًا، وجهها بريء كبراءة الأطفال وهم نائمون، ترتسم على شفتيها المكتظتين بلون الورد ابتسامة دون ابتسامٍ، ذات بشرة بيضاء بلون زهرة الياسمين، مع وجود بعض الكدمات الزرقاء في أنحاء متفرقة على جبهتها وأسفل عينيها في بدايات عقدها الثالث أو ما يقاربه، يتهادل شعر رأسها الطويل الكستنائي اللون بجوارها وكأنه ذيْل لمهرةٍ عربيةٍ أصيلةٍ تضاهي في جمالها "ڤينوس" إله الجمال عند القدماء الإغريق، كما كانوا يصفونها في أساطيرهم.

تغفو في منامها كما لو أنها لوحٌة لا يستطيع أعظم الرسامين على وجه الأرض أن يرسمها بريشته وألوانه أيًا كانت مهارته وإبداعه.

لا تستطيع سوى أن تقول بلسان الحال متباهيًا بخلق الله الذي لا يستطيع أي كائن كان أن يتجرأ ويباري عظمته في إبداعه: «سبحان

الله من خلق كل شيء وأبدعه، وخلق الإنسان في أحسن تقويم»، لا يشوب هذا الصفاء إلا وجود المحاليل الطبية المتدلية من أعلى سريرها منتهية بأداة طبية حادة تشق مسام جلدها الرقيق بكل قسوة؛ لتمد جسدها الضعيف الواهن بالأغذية، والدواء، وبعض الأجهزة الطبية الأخرى بجوارها تطمئن على كل ما يدور بداخل جسدها؛ من نبض وتنفس.

وهذا هو حالها حين سمعت الممرضة طرقًا خفيفًا على باب الغرفة؛ فالتفتت لترى باب الغرفة يُفتح من الخارج ويطل منه الدكتور عادل ببدلته الزرقاء الأنيقة وقوامه الممشوق الجذاب، وبوقاره المعهود عليه في جنبات المستشفى، وعلى شفتيه الابتسامة التى قلما فارقته، وتوجه إلى الممرضة ونحو سرير هذا الملاك النائم في صمت.

وقفت الممرضة باحترام لربّ عملها، وعلى وجهها ارتسمت علامات الترحيب بعادل الذي خاطبها وهو ينظر إلى الفتاة وفي عينيه وميض شيء ما يتمناه:

–كيف حالك يا سوسن؟

– الحمد لله، في فضل ونعمة يا دكتور.

ثم أشارت إلى الفتاة ودون أن يسألها عادل استرسلت في

الحديث قائلة: «اثنا عشر يومًا والحال كما هو عليه، ننقلها كل يوم للفحوصات ولا ينم عنها أيَّة إشارة تعلمنا أنها تشعر بنا على الأقل واس...»

قاطعها عادل بإشارة من يديه بأن تصمت وهو يتناول يد الفتاة المعلق بها الكلنة؛ فلقد كانت يدها الأخرى مصابة بكسور وترقد بداخل الجبيرة، ويبدو أن ساقها أيضًا به جبيرة أخرى، ولكن الغطاء على جسدها قد غافلنا ولم يفصح لنا عما بها من كسور، يا لها من كائن ضعيف يئن في صمت.

تناول عادل يد الفتاة ونظر إلى شاشة الجهاز المعلق الذي يصدر صوتًا منتظمًا لسريان النبض قليلًا، ثم ترك يد الفتاة برفق والتفت إلى سوسن قائلًا: «سوسن من فضلك، احرصي على نظافتها الشخصية، ونظافة سريرها، وتعليق المحاليل الغذائية والدواء بانتظام؛ فأنا اخترتك من بين طاقم المستشفى؛ لأني أعلم كفاءتك جيدًا، وأنا أتمنى من الله ألا أفقد تلك الفتاة؛ فحاولي قدر استطاعتك»، ثم استطرد قائلًا بأسلوب يحفزها به: «وثقي بأنني سأقدر جهدك هذا بمكافئة مالية استثنائية نظير تعبك هذا».

ترد سوسن بخبث أنثى متمرسة في مهنتها: «يعلم الله يا دكتور عادل أنني لم أقصر معها؛ فأنا أكاد ألا أذهب إلى منزلي منذ كلفتني

بمرافقتها، أما عن مكافئتي؛ فهذا هو عملي فحسب الذي أؤجر عليه ولا أريد سوى رضا ربي عنه ثم رضاك يا دكتور»؛ فيبتسم عادل ويربت على كتفها بحنان علامة للرضا، ويشكرها ويهمّ بالانصراف ثم يلتفت مرة أخرى إلى سوسن وفي عينيه رجاء غير مبررٍ: «أكاد أشعر بأن الله بجانب تلك الملاك البريء، وأنه سبحانه وتعالى سيبث فيها الحياة وتفيق من تلك الغيبوبة قريبا بإذن الله»، ثم ينصرف غالقًا الباب من خلفه وما إن ينصرف حتى تتمتم سوسن بكلمات أنثى تعلم بنوايا الرجال: «ماذا حدث لك يا دكتور؟ هل أصابت قلبك بسهم كيوبيد أم ماذا حدث لك؟

إنك تتساءل عن حالتها في اليوم عشرات المرات!

ثم تجلس على كرسيها مرة أخرى وهي تنظر للفتاة الغائبة عن الوعي بمكر أنثى، ثم تستطرد مخاطبة إياها بتودد مفتعل: «لو حدث فعلًا ما يجول بذهني لن أتنازل عن ترقية ومكافئة، يا رب تقومي بالسلامة»

تلمح سوسن حركة خفيفة من كف الفتاة؛ فتهب مسرعة إليها غير متأكدة من حركتها، وتنادي بصوت خافت: «هل بدرت حركة خفيفة من أناملك أم يهيئ لي من فرط ما أتمنى لك الشفاء؟ فتتحرك من جديد أنامل الفتاة بحركة خفيفة جدًا.

في تلك اللحظة ارتفع صوت سوسن وهي تخاطب الفتاة بلهفة وفرحة: «ليست تهيؤات، أفيقي يا أستاذة، أفيقي»؛ فتأتي الفتاة برعشة خفيفة من كفها وبصوت واهنٍ جدًا تتأوه وهي ما زالت غالقة أهداب عينيها: «آ.........هـ .....آ.......هـ»

تجري سوسن نحو باب الغرفة وتفتحه، وتخرج منه على عجل وترى دكتور عادل آخر الطرقة يمر على مريض آخر، وتنادي بلهفة وفرحة من ستنال مكافئتها فورًا: «دكتور عادل... دكتور عادل، بدأت الفتاة في استرداد وعيها»

يلتفت إليها عادل مسرعًا ويعاود أدراجه على عجل متهللًا وجهه بالسعادة غير المبررة أيضًا؛ فهو كدكتور مرت عليه الكثير والكثير بل وأكثر خطرًا من تلك الحالة.

يدخل على الفتاة ويتجه نحوها، بينما هي تئن؛ فيفتح عينيها بأنامله؛ فإذا هي بالفعل تعود تدريجيًا إلى وعيها، وكلما اقتربت من رشدها كلما أطلقت آه أقوى وأعنف مما قبلها، آه واهنة تارة، طويلة قوية تارة أخرى؛ فيحثها عادل على العودة سريعًا وهو يراقبها ويحفزها: «حاولي ...هيا أفيقي، أعلم أنك قوية وستعودين سريعًا»

تئن الفتاة أكثر فأكثر وتفتح عينيها المثقلتين بصعوبة وبطء، حتى إذا ما زالت عنهما الغشاوة فتحتهما عن آخرهما؛ فاقترب منها

أكثر وعلى وجهه ابتسامته الرقيقة الحانية؛ حتى يخيل للرائي أنه سوف يقبلها من فرط سعادته.

تنظر الفتاة بعينيها نظرات غائرة حائرة في أرجاء المكان من حولها، وتنتبه لعادل وهو يخاطبها مُرحبا: «حمدًا لله على سلامتك»، ويجيبها على سؤال لم تسأله: «أنا دكتور عادل، وأنت في المستشفى بعد أن نقلتك إلى هنا إثر حادث على الطريق هل تتذكرينه»؟

تشير إليه إيجابًا، ثم تنظر إلى جسدها؛ وتفحص ثقل ذراعها الموضوع في الجبيرة وتئن لرؤيته؛ فيطمأنها عادل قائلًا: «لا تخافي، كلها أشياء بسيطة وستتعافين بإذن الله يا...»

ثم استطرد سائلًا إياها: «لم نعرف بعد اسمك، فلم نعثر لك على أيَّة هويُة تخبرنا به؛ فهل تتذكرينه»؟ فهزت رأسها من جديد وهي تنظر في جبيرة ذراعها أن نعم؛ أردف عادل ممازحًا إياها لعله يسمع صوتها: «نحن أطلقنا عليك اسم؛ فهل وُفّقنا في تخمين اسمك سيدتي؟ لقد أطلقت عليك فاتن أو أميرة، أخبريني أنني وفقت رجاءً»، ابتسمت الفتاة ابتسامة باهتة لدعابته، ثم بصعوبة بالغة حركت شفتيها التي تعلق نظر عادل بهما على استحياء، وهو يكاد يشعر أن سوسن تقرأ ما يدور بعقله هذه اللحظة، وأنه يتوق إلى أن يعرف اسم هذا الملاك الفاتن.

الفتاة: «اس..مـ....ي، چـ ..اس...ميـن
چاسمين...صلاح».

هذا هو أنسب الأسماء بالفعل؛ فأنت مثالٌ حي لزهرة الياسمين؛ فليتقبل والديك مني تحياتي المتواضعة على حسن اختيارهم اسمك.

ثم فطن عادل أنه تسرع بتلك المقولة وشعر بإحراج شديد من سوسن التي وقفت ترمقه بعيون أنثى ثاقبة تجرد رجلًا من وقاره؛ فتلعثم وقال بسرعة ليداري خجله، وبجدية وحزم أكمل كلامه: «اعذريني؛ فأنا يوم نقلتك إلى المستشفى كنت ما بين الحياة والموت؛ ولذلك أنا أحاول فقط أن أمازحك لتبتسمي؛ فأنا أدرس الآن ردود أفعالك لأطمئن فقط على أن حواسك جميعها بخير،ثم تمتم بصوت منخفض على استحياء، ولكن لا يمنع هذا من أنك بالفعل مثال حي للياسمين»

ردت چاسمين بابتسامة على الرغم منها وقالت: «أشكرك على أدبك الجم»، قالتها بصعوبة بالغة، ثم أطلقت من بعدها أنينًا، وآه رقيقة اخترقت قلب عادل على الفور؛ لتعلن له استسلامه لسهمي كيوبيد عسليتي اللونِ.

اعتدل عادل من وقفته أمام چاسمين ثم قال لها: «هل تسمحين

لي أن أنصرف الآن وسأرسل الأطباء وطاقم التمريض ليهتموا بعمل اللازم لك، ولترتاحي قليلًا بعدها، ولنا لقاء آخر في وقت لاحق»؟ فأغلقت عينيها بضعف واستسلام ثم هزت رأسها ببطء علامة للامتنان والموافقة على انصرافه.

انصرف عادل على الفور وفي قلبه شيء ما تحرك لا يعلم ماهو، ذلك الشيء.

الفصل الرابع

ما هـذا الشيء؟

انصرف الدكتور عادل من غرفة چاسمين وقد تغير شيء ما بداخله هو لا يدري ما هو؛ فهو شيء لأول مرة يشعر به حيال قلبه الذي ينبض دائمًا بوتيرة رتيبة.

الآن يخفق بطريقة لا يكاد يصدقها؛ فهو ومن هو إنه الدكتور عادل أشهر جراح قلب في الشرق الأوسط، صاحب الأربعين ربيعًا الطبيب الوسيم كما يطلقون عليه في مجال التلفاز بفضائياته التى تتهافت عليه كل المذيعات؛ للفوز بحديث منه في مجال تخصصه؛ فهو لم يكن أبدًا مستعدًا لمثل تلك المهاترات التي يمارسها الشباب والرجال في مثل عمره وما قبله؛ فهو عادل عاشق الدراسة، وعاشق العلم الذي لم يلتفت أبدًا لزميلاته في الدراسة الثانوية ولا الجامعية ولا حتى في دراساته الخارجية لتحضير الدراسات العليا بأكبر جامعات أوروبا؛ وهو الذي حاولت أجمل الفتيات الوصول إليه دون جدوى ولا اهتمام منه، بل يكاد لم يعرف أبدًا أن هناك من يحاولن الوصول إلى قلبه بشتى الطرق، ولكن هيهات أن ينتبه لمحاولتهن.

هو من هو، إنه عادل الذي يشخص كل مرضاه ويضع يديه على علتهم بمجرد أن يخبروه بعَرَضين أو ثلاثة لعلتهم؛ فيسعى على الفور لوصف العلاج المناسب أو التدخل الجراحي؛ لتسكين أوجاعهم بمشيئة الله أولًا ثم بعلمه الذي سخره الله له.

ها هو الآن لا يدري ما علّته هو، جلس في غرفته متكئًا على الكرسي الخاص به للخلف، ورفع قدميه على قمة مكتبه أمامه محدقًا عينيه في سقف الغرفة المضيئة بلون هادئ يشع من جوانب السقف المغطى ببعض الديكورات الخشبية المعلقة بإسلوب يبعث على الهدوء والسكينة، وشرد في تلك الفتاة التى لا يعرف عنها أي شيء سوى أنها الآن تدعى چاسمين، وهو الاسم الذي عرفه منذ دقائق معدودة، لاحت على شفتيه ابتسامة لمجرد أنه سمع بخياله اسمها في أذنيه يتردد من بين شفتيها.

من هي؟

وما قصتها؟

ولِمَ وضعها القدر في طريقه؟

وماذا يحدث له كلما دخل عليها حجرتها ورأها نائمة في استسلام لغيبوبتها ؟

إنّ كل ما رآه منها براءتها، استسلامها الصامت للأجهزة الطبية،

إنه حتى لم يسمع صوتها، ولم يرَ بريق عينيها ولا لونهما، لمَ تسلبْ قلبه بابتسامة من شفتيها!

إنها مجرد فتاة راقدة ما بين الحياة والموت؛ فلماذا إذًا يا قلبى تتسارعِ نبضات قلبك وتكاد تقفز من بين ضلوعِ صدرك كلما خطوت قدماي واقتربت من باب حجرتها؟

ما بالك يا عيناي تتحجر مقلتيكِ، وجفنيكِ، وأهدابكِ، وترفضن الانصياع لأوامر عقلي الباطن؛ لتقومي بوظيفتك فتطرفين لمحة من بصر، أتخشين لهذه الدرجة أن تفقدي رؤياها لطرفة عين واحدة؟

وأنت يا قلبي، لماذا أشعر بأنني قطعت بك أميال وأميال؟ أرقد في ماراثون سباق لألعاب القوى؛ فأراكَ تتسارعِ أنفاسك شهيقًا وزفيرًا بمجرد فقط أن ألمس يديها لأطمئن لسلامة دقات قلبها وتنفسها؟

يا إلهي! إنني حتى لا أعلم إن كانت زوجة، أم أُم، أو أنها ما زالت فتاة بكر لم تتزوج.

لا أعلم حتى ديانتها فمنذ أحضرتها، ولم أعرف عنها أي شيء سوى أنني أشعر بها فقط، وكأنها طائرٌ سقط من الجنة إلى قارعة طريق أسفلتي وتألم؛ أو كفراشة تهادت بجناحيها على أغصان زهور برية رقيقة احتضنتها؛ فنامت على أوراقها.

أرى أنفاسها من بين ثنايا صدرها، وشفتيها كخرير ماء انسابَ مما بين الجداول بين سيقان الطيور.

إنها يا قلبي كقمر أطل بوجهه على الأرض؛ ليبدل براثن العتمة نور.

كل تلك الأعراض ماذا تسميها يا قلبي؟ فأنا لم أدرس أبدًا في كلية الطب أعراض تشابه تلك الحالة؛ فكيف أُشخّصها؟ فهل تعتقد أن هذا هو الحب الذي لم نسمع عنه ولم ندرسه؟ إن كان هذا هو ولا محالة هو؛ فلتعلم يا قلبي أنك لم تكن من قبل حيًّا، بل كنت من سكان القبور وقد فاتك الكثير والكثير.

أطلق تنهيدة أحرقت الهواء من حوله، وهو يردد بكل هيام: «آه يا چاسمين، لقد أضحيتُ أنا المريض الآن، ودوائي هو أنت، وأنت فقط ولا أحد سواكِ»

لاحت على شفتيه ابتسامة صغيرة، وأطلق كلمات بصوت به تعجبٌ مما أصبح عليه؛ «لقد أصبحت شاعرًا يبدو أنك قد مسَّك الجنون يا دكتور»؛ رددها عادل بنفاذ صبر.

الفصل الخامس
حكايــة أنثى

بعد مرور عشرة أيام من ذلك اليوم الذي تفتحت فيه زهرة الياسمين أمام عيني عادل، والنظر في عينيها العسليتين لأول مرة، تعددت لقائاتهم داخل حجرتها وهي تتعافى يومًا بعد يومٍ، وهو يمرض وحياؤه يمنعه أن يبوحِ بما يتوغل بقلبه من مشاعر. هل تصدقون لو أخبرتكم أنه حتى هذه اللحظة وبعد مرور عشرة أيام كاملة ما زال أيضًا لا يعرف عنها أي شيء! يا لك من سييء الحظ أمام عينيها أيها الطبيب العاشق.

في اليوم الحادي عشر، وخصوصًا إلى حديقة المستشفى، كان أول خروجِ لچاسمين من غرفتها لتجلس قليلًا في الهواء الطلق، جلست چاسمين على أحد مقاعد الخيزران تضيف إلى جمال المكان روعَة و جمالًا آخر. كان شعرها مسترسلًا خلف ظهرها ويُداعبه النسيم؛ فيُبعثره من حين لآخر على أكتافها؛ فتُداعبه هي بأطراف أناملها لتعيده إلى الخلف مرة أخرى بحركة لا إرادية، ترتدي على جسدها زيًا مميزًا لنزلاء المستشفى من قطعتين؛ سروالًا من الستان وردي اللون، وروبًا بنفس اللون، وعلى كتفيها وضعت حجابها،

ولكن دون أن ترتديه؛ فهي بمفردها في هذه الحديقة الخضراء تتابع بعينيها عصفورتين تلعبان أمام نافورة الماء بالقرب منها.

يقف عادل عند مدخل الحديقة وبجواره سوسن عن يمينه تشير إليه لتدله على المكان الذي تجلس فيه چاسمين، وعلى البعد نراه يحرك رأسه علامة أنه وجدها؛ فتنصرفُ سوسن إلى داخل المستشفى، ويتجه عادل نحو چاسمين التي ما زالت تداعب خصلات شعرها وعلى وجهها شرود تشوبه مسحة من حزن، لم تشعر باقترابه منها حتى أصبح على بعد خطوات قليلة وابتسامته المهذبة على شفتيه، وما لبث أن أصدر صوتًا منخفضًا ليخبرها بوجوده، وبادرها قائلًا بكل أدب: «هلا تسمح لي ياسمينة هذه الحديقة أن أجلس معها قليلًا»؟

انتبهت لوجوده؛ فارتبكت ورفعت وشاحها من على كتفيها ووضعته على رأسها لتسترَ به شعرها، متلعثمة وهي تبتسم ابتسامتها العذبة الرقيقة التي يذوب فيها قلب عادل، ويكاد يقفز من صدره ليضعَ قبلة على تلك الشفاه الوردية، ولكن مسكين عادل ما زال متماسكًا بزمام الأمور، ويعرف كيف يكبّل قيود قلبه جيدًا.

– بالطبع، بالطبع يا دكتور، من فضلك اجلس؛ إنه لشيء يسعدني.

جلس عادل على الكرسي المقابل لها وبادرها قائلًا: «حمدًا لله على سلامتك أنا أرى أنك الآن في طريقك للشفاء الكامل بإذن الله»

چاسمين: «الحمد لله، فضل عظيم من الله وجودك وقت الحادث قدره الله لي ليجعلك سببًا في شفائي»

«الحمد لله»؛ قالها عادل على استحياء ثم بادرها مغيرًا مجرى الحديث بتساؤل: «أخبرتني سوسن أنك تطلبين رؤيتي لأمرٍ هامٍ؛ فما هو يا ترى هذا الأمر أيتها الياسمينة الرائعة»؟

تعتدل چاسمين في جلستها، وترتسم ملامح الجد على وجهها وتقول والحياء يكاد يمحيها من فوق الأرض محوًا وبصوت متلعثم قليلًا:

«دكتور عادل، أنا آسفة كثيرًا، أنت نقلتني إلى هنا ما بين الحياة والموت مثلما أشرت لي في السابق، وأدخلتني مشفاك الخاص دون أن تعلم من أنا، وهذا كان رغمًا عن إرادتي؛ فلم يكن لدي أي خيار في ذلك الأمر لأرفضَه أو أوافق عليه لفقدانِي الوعي، أمَا وقد استعدت كامل الوعي الآن؛ فلا بد وأن أكون صريحة معك؛ إنني لا أستطيع أن أصف لك مدى خجلي من نفسي لهذا الموقف الذي وضعتني فيه دون أن تقصد بعلاجي في هذه المستشفى الخاصة؛

فأنا لا أعرف كيف سأتمكن من دفع تكاليف العلاج هنا؛ فأنا لست من الأثرياء أو...»

كان عادل ينصت إليها وعلى وجهه نفس الابتسامة المهذبة التى قلما فارقت وجهه؛ فأشار إليها مقاطعًا باقي كلماتها؛ ليسقط عن كاهلها أعباء الخجل الذي يتساقط من حديثها، وبكل أدب معاتبًا إياها قائلًا: «آسف على مقاطعتي لهذا الكلام الرائع حقيقًة، وأشكرك عليه؛ فكم أسعدتِني حقًا؛ لأنك أخبرتِني بأنني شخصٌ لا أسعى إلا للمال؛ فقد كانت هذه الحقيقة غائبة بالفعل عني؛ فشكرًا لك لتذكيري بهذا الشأن»، قالها بسخرية واضحة.

قاطعته هي بدورها: «آسفة على ما بدر مني من سوء، العفو منك يا دكتور عادل، أنا لم أقصد هذا؛ وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ وهل تَخالُني أقصد هذا وقد أكرمتني وا...»

قاطعها مرة أخرى: «لا عليك، أنا لم أفعل أي شيء، إنه فضل الله الذي ساقه لي كي أنقذ حياة إنسانٍ، وقد أعانني عليه، وجعلني سببًا لكِ، وتواجدي وقت الحادث لم يكن إلا لحكمة يعلمها الله وحده ليس لي دخل بها، لا تحرميني من خير قد ساقه الله إلي»، ثم قال برقة قليلا: «وهو خير رائع الجمال، ويا ليت كل الخير يكون مثلك»

تلمع غرّتها، وتتلون بلون الورود خدودها، وترد چاسمين على استحياءٍ: «هذا من كرمك الشديد زادك الله من كرمه»

يعتدل عادل متلعثمًا قليلًا؛ فيقول لها:

– هل تسمحين لي بسؤالك سؤالًا واحدًا فقط؟

– أكيد، تفضل.

– من أنت؟

– أنا چاسمين.

فكرر عادل عليها السؤال بطريقة أخرى محاولًا تفادي هروبها من الإجابة: «ومن هي چاسمين؟ فأنا لا أريد معرفة الاسم، فكما تعلمين أنني عرفت اسمك منذ أفقتِ من تلك الغيبوبة»

تبتسم چاسمين حتى تنقلب ابتسامتها إلى ضحكة عالية؛ فينظر إليها عادل متعجبًا: «ضحكتك فاتنة، لكن وماذا في سؤالي يستدعى الضحك»؟

تشير بالسبابة أمام وجهها علامة النفي وتقول معتذرة وعلى شفتيها أثر ابتسامتها لم تنتهِ بعد: «آسفة جدًا، لم أقصد، ولكن ما أضحكني حقيقة؛ أنه ليس سؤالًا واحدًا فحسب يا دكتور، إنها مجموعة كثيرة جدًا من الأسئلة مجتمعة في سؤالك من أنا! إنك تطلب مني يا دكتور أن أخبرك عن چاسمين؛ فهل تقصد أن أخبرك

عن چاسمين منذ ولادتها وحتى طرح السؤال الآن، أم أنه كما أجبته لك منذ قليل أدعى چاسمين؟ إنها بلاغة اللغة العربية في طرح السؤال يا دكتور، إن لم يخونني فهمي بقواعد البلاغة الأدبية؟ أليس كذلك»؟

فيرد عليها عادل بلهفة وبتلقائية: «ليكن يا چاسمين، ولِمَ لا؛ فأنا حقيقة متلهف لسماع قصتك؛ فوجودك بمفردك منذ أفقتِ من الغيبوبة وعدم حضور أي زائر لك، وجلوسك دائمًا وحيدة هكذا يكاد يقتلني فضولا لمعرفتك»

لمح على وجهها مسحة من حزن وبريقًا لدمعة حائرة تأبى أن تغادر كبرياءً لها أثناء حديثه؛ فصمت برهة ليسمح لها أن تعبر عما بداخلها من مشاعر، لكنها أطالت في صمودها؛ فقرر أن يحثها على الحديث؛ فقال لها: «ليس هناك ما يشغلني عن سماعك في وقتنا الحاضر؛ فلتبدئِي من الآن إن لم أكن متطفلًا، هيا رجاءً إن كنت لا تُمانعي رجائي»

تصنعت چاسمين الابتسامة وهي تردد:

–هل أنت جاد يا دكتور حقا؟

–نعم أنا جاد.

–قصتي طويلة، وأنت رجل وقتك ثمين والمرضى في حاجة دائمة لوجودك.

–هل أعتبر أن هذا رفضًا بطريقة مهذبة؟

–لا لا، ليس رفضًا، ولكن خوفًا من إهدار وقتك فقط.

–وإن أخبرتك أن معرفتي بقصتك هو من أهم أولوياتي في الوقت الحاضر؛ فماذا تقولين؟

ثم أتبع كلامه بكلمات بها طابع الرجاء: «هل توافقين الآن على إجابة سؤالي أم فشلتُ في إقناعك»؟

ويتبع كلماته بابتسامة من شفتيه..

تعقد چاسمين حاجبيها وعلى وجهها علامة الحيرة، ثم ترفع أكتافها إلى الأعلى وتخفضُهما علامة الاستسلام وتقول: «لك ما تريد أيها الطبيب إن كنت لن أثقل عليك؛ فلَكَم يسعدني تحقيق مطلبك»

يعتدل عادل في جلسته ويخاطبها باهتمام قائلًا: «إذًا هيا؛ فكلِّي أذان صاغية».

چاسمين بقلةِ حيلةٍ تبدأ في سرد حكايتها...

«اسمي چاسمين صلاح محمود، ولدت ٢١ من مارس»،

فقاطعها عادل: «علمت الآن سرَّ تسميتك بچاسمين؛ إنه عيد الربيعِ الذي تتفتح فيه الأزهار»

چاسمين بحياء: «أشكرك، هلَّا أسألك أنا سؤال يراودني بإلحاحٍ وبادَرته سائلة دون أن تنتظر منه أن يُصرّحَ لها: هل أنت هكذا دائمًا مع كل مرضاك»؟

يجيبها عادل مبتسمًا بدوره:

– إذا كانت المريضة اسمها وردة أو زهرة فربما نعم.

– إذًا فكل الزهور تأتي إلى هنا للعلاج في هذا المشتل؟ أقصد هذا المشفى؛ يضحكان سويا بصوت عالٍ ثم يقول عادل: «إذًا هذا عن يوم ميلادك؛ فهلا أكملتِ»؟

– نعم ولدت بالإسكندرية، أبي موظف في إحدى شركات البترول، وأمي مدرسة لغة إنجليزية في مدرسة ثانوية، رزق والداي بعدها بأخٍ أسميناه محمدًا، وبعدها بأخت اسميتها أنا جومانا، حياتي كانت كلها تسير على درب من دروب السعادة. وذات يوم جاءت أمي من المدرسة سعيدة وأخبرت أبي أنها رشحت للسفر إلى الإمارات للعمل هناك، كنت آنذاك في الرابعة عشر من عمري، وكنت أستطيع أن أعلمَ مدى السعادة التي تشعر بها ومدى فرحتها

الغامرة وهي تتحدث معنا عن تلك الإعارة التى ستكون سببًا في تحقيق قفزة في المستوى المعيشي لكل أفراد أسرتنا.

في بداية الأمر رفض أبي بشدة؛ خوفًا على أمي من الغربة وحدها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى خوفًا من تفرّق أفراد الأسرة، هذا ما كان يخبر به أمي عن سبب رفضه، أما عما لم يبوح به صراحة لها؛ فهو أنه ككل العشاق كان يعشقها ولا يستطيع عنها بعدًا ولا فراقًا.

الكثير من النقاشات الصاخبة والكثير من التودد واللين حتى اقتنع أبي أخيرًا، وحسمت أمي المعركة لصالحها في النهاية على أن يدعها تذهب بمفردها وتجرب حياة الغربة والمغتربين، وعلى أن تعود عندما تشعر بالحنين للوطن أو إذا لم ترتَح بعيدًا عن الأهل.

وسافرت أمي إلى أبو ظبي، وما هي إلا شهور قليلة وأرسلت لأبي عقد عمل، وقد كان عقد العمل عقدًا مغريًا إلى أبعد من أن يرفضه أبي، وفي هذا الوقت فقط تغير كل شيء من حولي؛ حيث أن أبي قد وافق على هذا العرض، واستقال بالفعل من عمله وانتقلنا أنا وأبي وأخوتي إلى أبو ظبي؛ كم هي بلد رائعة، جميلة، نظيفة ومنظمة، أهلها تشعر فيهم كأنهم مصريون مثلنا، شعب ودود، طيب، مثقف، منظم، ولولا اختلاف اللهجة العربية، وملابسهم البيضاء التى تراها في كل مكان حولك؛ لأقسمت أنهم مصريون وحبهم الشديد لكل

ما هو مصري يزيدك يقينًا على أنهم أهل لنا. طالت إقامُتنا هناك عشُر سنوات من النعيم، انتهيت فيها من دراستي الجامعية، وكان أخي محمد بالجامعة، وأختي جومانا في المرحلة الثانوية.

عاد والدي إلى التفكير من جديد في العودة إلى الوطن، وتناقشنا جميعًا كثيرًا واختلفنا كذلك، ولكن لمَ البقاء فقد تيسر الحال بنا، يجذبنا الحنين بشدة للوطن، وككل قراراتنا التي تخص الأسرة اتفقنا أخيرًا على أن العودة إلى الديار هي القرار الأمثل.

تم كل ما خططنا له للرحيل، وكانت مفاجئة أبي لنا التي جعلت كل الأسرة تشعر بسعادة حقيقية؛ بأنه قد حجز لنا رحلة العودة عبر الديار المقدسة لنعتمر جميعًا، وبالفعل كانت سعادتنا غامرة بتلك النهاية من سنوات الاغتراب بأن تكون الكعبة المشرفة ختامها.

وذهبنا إلى السعودية، وقضينا المناسك واعتمرنا، ولقد كانت أجمل خمسُة أيام في العمر، وكذلك كانت سعادتنا عندما وجدنا أنفسنا على ظهر سفينة أخرى تبحر بنا متجهة نحو الوطن مصر.

توقفت ياسمين عند تلك الجملة عندما قاطعها حضور أحد الممرضيين إلى الدكتور عادل، ثم وقف أمامه ثم قال متلعثما قليلًا وبإعتذار:

– آسف يا دكتور عادل لمقاطعتي، ولكن دكتور حفني أمرني بأن أخبرك بأنه يريدك في أمر هام.

– لا عليك، أخبره بأنني سأحضر إليه.

فانصرف الممرض ومن ثم نظر عادل إلى چاسمين بابتسامته التي قلما فارقت وجهه، وبنظرة اعتذار لچاسمين التي أدركت على الفور مدى خجله من الانصراف وتركها بمفردها قائلة له على الفور:

– أنا آسفة جدا، يبدو أنني قد أطلت حديثي؛ مما أدى إلى اشتياق المرضى لك، وأنا أعذرهم؛ فإن الحديث مع رجل مثلك لكَم هو دواء بمفرده.

– هذا إطراء منك يا چاسمين لا استحقه، ولكن –وهو يهم بالوقوف– اسمحي لي أن أرى ما يحدث في الداخل، وسأعود إن كنت ما زلت جالسة على وعد أن تكملي لي إجابة سؤالي من أنت؟! قالها وهو يشير بإصبعه السبابة أمام وجهه، وبانحناءة بسيطة من جسده نحوها ويكمل: « فأنا أشتاق إلى أن أعرف باقي قصتك أستمحيكِ عذرًا»، ثم انصرف.

الفصل السادس
مقدمة ما قبل الكارثة

انصرف عادل عائدًا إلى داخل المستشفى، وترك چاسمين من وراءه تلتقط أنفاسها قليلًا؛ لتسترجع باقي ذكرياتها مع نفسها، دخل عادل غرفة الدكتور حفني.

دكتور حفني رجل في العقد الخامس من عمره وهو شريك لعادل في المستشفى، الدكتور حفني هو دكتور فظ الأسلوب والمشاعر على عكس عادل تمامًا، هو ماهر جدًا في تخصصه كجراح مخ وأعصاب.

قابل الدكتور عادل بفتور شديد: «أهلا عادل، في كل مرة أسأل عنك يخبروني أنك مع الحالة(٢١٤)»

دكتور عادل مقاطعا: «اسـمها چاسمين يا دكتور وليست الحالة (٢١٤)، لا تشعرني أنني أجلس مع كرسي أو ما شابه»

قابل الدكتور حفني كلامه بعدم اكتراث قائلًا:

–وهو كذلك يا دكتور مع چاسمين، هلا أخبرتني ما هي حكايتك مع تلك الحالة؟ أقصد مع تلك الچاسمين

– لا شـيء يا دكتور، لكنـي لا أدري ماذا يسـمى؛ يبدو أنني أحببتها.

–أحببت من؟ إنها مريضة كانت تحتاج إلى رعاية، وقد قمت بواجبك، بل قمنا بواجبنا جميعًا حيالها؛ فكيف؟ ومتى أحببتها؟ إن ما تقوله يا عادل لهو درب من جنون، صدقني إنه ليس حبًا يا عادل أخشى كل ما أخشاه أن تكون مصابًا بأعراض مراهقة متأخرة أنت لا تعلم عنها أي شيء يا بني

قال له عادل مبتسمًا لتشخيص حفني له: «للأسف يا دكتور حفني، أنا لا أعاني من مراهقة متأخرة، أما كوني لا أعلم عنها شيء، فلولا أنك أرسلت في استدعائي لكنت الآن أعلم عنها كل شيء وقريبًا سأدعوك لخبرٍ سعيد بإذن الله»

– وهل كونك كنت ستتعرف عليها منذ قليل يجعلك تعقد العزم على الارتباط بها يا بني؟

إنك ترتكب خطأً في حق عائلتك العريقة، وخطأ آخر في حق تاريخك المشرف في مجال الطب يا عادل!

إنك ترتكب حماقة وأخشى ما أخشاه من أن تندم على تسرعك هذا.

– أنا لم أتسرع ولم أعلن بعد أني بالفعل عزمت على الزواج ولكني أتمنى من الله أن تكون تلك الفتاة هي التي تستحق حمل اسمي. أنا أبلغ من العمر أربعين عاما وما زلت أعود إلى منزلي كل يوم وحيدًا، أليس من حقي أن أبحث عن من تؤنسني بدفء

مشاعرها، وتحتويني بضمة قلبها وحنانه؟ لمَ لا أكون ناجحًا في عملي، وأجد من يشاركني هذا النجاح يا دكتور حفني؟ لمَ لا أعود إلى البيت لأجد ملاكًا صغيرًا يتعلق بأحضاني فأضمه وأخلع على ذراعيه الصغيرتين همومي وتعبي.

حفنى مقاطعًا أحلام عادل الوردية سائلًا: «كل هذا وجدته في تلك الفتاة التي لا تعلم عنها أي شيء أم أنك ترجوه عندما سحرتك بأنوثتها وجمالها فقط؟ يا بني، إن الجمال أحيانا كثيرة يداري خلفه ما لا يحمد عقباه.

عادل مدافعًا عن وجهة نظره:

«دكتور حفني أنا لم أنجذب نحو جمال بقدر ما أحلم باستقرار عائلي وبدفء البيت وكفى»

استسلم حفني أخيرًا لعادل، وبتنهيدة من بين شفتيه قال: «تمنياتي لك بالتوفيق يا عادل»، ثم ابتسم ابتسامة ليس لها معنى وبدون أي مراعاة لمشاعر عادل، أكمل سائلًا: «هل ستقدم لها مهرًا أم ستكتفي بتكاليف علاجها بالمستشفى الذي قارب من خمسين ألفًا حتى الآن»؟

سأل عادل باستغراب: «ماذا تقول يا دكتور؟ ومنذ متى يراجع

كلٌّ منا الآخر في علاج الحالات الإنسانية؟ هذه حالتي الشخصية، وأنا من أحضرتها إلى هنا»

–الحالات الإنسانية لا تقيم بالمستشفى ما يقارب على شهر، ولا يُفتح لها غرفُة خاصة، وعناية خاصة وكأنها أميرة تُعالج على نفقة رئيس الدولة.

قاطعه عادل محتدًا: «هي لدي أميرة يا دكتور حفني، ومن فضلك عليك أن تراعي أنني لست أعمل لديك بل إنني أمتلك مثلما تمتلك أنت في هذه المستشفى، أما عن المصاريف فهي من الآن فصاعدًا من جيبي الخاص، وأخرج محموله وضغط على أزراره وتحدث: «أستاذ محمد إذا سمحت تكاليف غرفة ٢١٤ منذ أن دخلت إلى المستشفي وإلى أن تغادرها من حسابي الشخصي، أرسِل لي عند مغادرتها فاتورة بكامل المبلغ لأدفعه للخزينة»، ثم أنهى المكالمة دون أن ينتظر ردًا من الطرف الآخر، ثم أتبع كلماته بحده وقد احمرَّ وجهه من شدة الغضب وقال: «هل لديك شيء آخر لتضيفه يا دكتور فإنه علي الانصراف»؟

وبلا مبالاة من حفني وكأنه لم يفعل أي شيء يستدعي غضب عادل منه، وبكل هدوء أشاح بيديه قائلًا : «لا، لا أريد أي شيء

آخر، أتمنى لك التوفيق يا بني، وأتمنى أن تكون تلك الفتاة تستحق منك ما فعلته لها الآن»

انصرف عادل على الفور دون أن يلتفت إلى حفني، وخرج غاضبًا، واتجه نحو چاسمين في الحديقة التي ما أن رآها ما زالت جالسه تسترجع خصلات شعرها المتطايرة خلف ظهرها؛ حتى هدأ من جديد على الفور؛ فلقد أطفأت نار غضبه وكأنها قطرات مطر قد تساقطت على قلبه العاشق مباشرةً.

ملأ قلبه بدفعة من الهواء ثم زفرها خارجِ صدره بعنف، وتوجه إليها من جديد مادحًا إياها عند وقوفه خلف مقعدها مباشرًة: «چاسمينة المكان وعطره هلا أكملتِ لي قصتك فلم أستطع الانتظار؛ فعاودت مجددًا إليك ولن أتركك قبل أن تجيبيني على سؤالي السابق قبل انصرافي، هل تتذكرين سؤالي من أنت»؟ قالها ممازحًا لكن فاجئته دموعها التي على وجنتيها واحمرار عينيها عندما التفتت إليه؛ فقال وعلى الفور بعد أن قطع ابتسامته: «ماذا حدث لك؟ لمَ كل تلك العبرات في عينيك؟ هل يؤلمك شيء ما أو حدث مكروه لا أعرفه»؟

فأشارت إليه بأن لا، ثم قالت على الفور والحزن يتساقط من بين شفتيها: «آسفة يا دكتور عادل؛ فما تبقى من حكايتي هو من أسوأ

أيام حياتي، ولا أريد أن أسردها لك حتى لا أُحملك همي وحزني؛ فأنت ملك لمرضاك وهم أولى مني بصفاء يومك»

وبدون وعي منه، وجد يديه تحتضن كفيها الصغيري، ويشد عليهما بكلتا راحتيه: «من فضلك لا أريد أن أرى في عينيك كل ذلك الحزن ولا الدموعِ، أنا بجوارك ولن أتركك أبدًا ما حييت ولو أخبرتِني ما يحزنك أعدك بأنني سأبدل حياتك سعادة، ولو تطلب مني الأمر ما لا أطيق سأفعله عن طيب خاطر»

استسلمت ليديه دون أن تشعر، وشعرت بصدق كلماته تمس قلبها وتبث فيه الطمأنينة، ثم انتبهت لراحتها التي بين يديه؛ فسحبتهما برفق على استحياء وانتبه هو الآخر؛ فتلعثم قائلًا: «أنا آسف چاسمين، لم أنتبه لما فعلت، إنه شعور تلقائي بدرَ مني فلتسامحيني»

ردت هي بحياء: «لا يهمك، أنا أيضا آسفة على اقتحامي حياتك بدون وجه حق؛ فأنت رجل شهم خلوق، ولو أنني أستطيع أن أهبَك عمري ما كفاك»

– لا تقولي أي شيء آخر رجاءً، إن كنت تريدين حقًا شكري أرجوك تكلمي معي على ما أحزنك لنحاول أن نعبره معا بإذن الله، قالها عادل برجاءٍ.

الفصل السابع

المـأسـاة

«آه كم هو شقائي وحزني على الأحباب» قلتها بلوعة وأنا أستندُ من جديد على مقعدي، وأغمضت عيني وأنا أستعيدُ شريط ذكريات ما حدث لي ولأسرتي؛ وتذكرتُ عندما كنت مع أخي محمد وأختي جومانا بغرفتهم بالسفينة العائدة إلى الوطن، تتصاعد من أحاديثهم تلك الضحكات البريئة، والصخب الذي يعلو كلما قام محمد بإلقاء إحدى دعاباته التي كان يشتهر بها؛ فقد كان الجميع يعشق خفة ظله ودعاباته الدائمة مع كل الأهل والأصدقاء. أما جومانا؛ فهي الفنانة الاستعراضية الصغيرة بتلك الأسرة، كانت سريعة التقمص لأي راقصة بمجرد أن تستمع لأي موسيقى تعزف؛ وأستَعيدُ ذكرى محمد وهو يمازح (جوجو) كما كانوا يطلقون عليها؛ بأنها حتى لو سمعت موسيقى جنائزية سيهتز خصرها دون وعي منها؛ فتنفجر في وجهه بغضب طفولي لتعليقه الساخر منها، وتهرول تشتكي منه لأمها وتلومه أمه وتؤنبه بدلالٍ قائلة له: «دع مزاحك بعيدًا عن البنت يا سليط اللسان»؛ فيُخرج لهما محمد طرف لسانه ليغيظ به تلك

الصغيرة؛ فتغضب أكثر وأكثر وتدب على الأرض ضرًبا كالأطفال؛ فينفجر الجميع ضحكًا لفعلته تلك.

أتذكر أمي وهي تشاركنا تلك الضحكات والسعادة الغامرة التي تكسو كل الشفاه، أتذكرُ عندما كنتُ أنشد لأمي أغنيتي التي ما زلتُ أعشقها حتى يومنا هذا؛ أغنية لمصطفى كامل تقول كلماتها:

أمي أمي صباح الحنين يا أماه.
صباح الدهب والماس
ولا بعد دي طلة..
ولا بعد دا إحساس
صباحك فل يا شجرة فل..
بتطرح كل أوان وميعاد
صباح الحب يا غنوة حب..
هتفضل عايشة في قلب الواد
يا حاطة في قلبي قلوع وأساس..
يا وطني اللي عمره ما يتقاس
يا ميت نهار أبيض على شعرك الأبيض..
أنا ألاقي قلب أبيض من
قلبك فين يا أغلى الناس..

أمي أمي أمي أمي أمي

أتذكر والدي وهو يدخل علينا مقتحمًا باب الغرفة، وعلى وجهه علامات الرعب والفزع صارخًا فينا جميعًا: «هيا... هيا... اسرعوا جميعا إلى سطح السفينة، هناك شيءٌ مريب يحدث، وهناك دخان كثيف يتصاعد من الباخرة، ويبدو أن الباخرة تتعرض لشيء ما لا أعرفه، هيا فلنستعد لأي أمر مفاجئ»

قمنا جميعًا والخوف قد ملأ ملامحنا، وتبدَّل صخبنا وضحكنا صمتًا مخيفًا، تمتمت أمي بلا إله إلا الله، ارتدينا ملابسنا على عجل وصعدنا إلى سطح السفينة تتلاحم أجسادنا بعضها ببعض؛ لنلتمس من أجسادنا دفئًا وطمأنينة بدلا من الخوف من المجهول، صعدنا ويا لها من فوضى عارمة هناك! الكل يهرول هنا وهناك، السطح امتلأ بالأدخنة المتصاعدة من جانب السفينة، وجمع غفير من الرجال مع طاقم السفينة يجاهدون في السيطرة، على ما يبدو أنه حريق قد شبّ في باطن السفينة، والكل يحاول؛ وفجأة مالت السفينة على جانبها الأيسر بعنف؛ فتعالت الصرخات من كل مكان، وقائد السفينة يصرخ على كل الركاب أن يتجهوا نحو يمين السفينة حتى تعود إلى اتزانها، وهنا تركنا أبي سريعًا يبحث كالمجنون عن سترات النجاة لنرتديها، أمي تضمنا جميعا وكل أذرعتنا تشابكت

والتفت حول أجسادنا؛ خشيةً من أن نبتعد بعيدًا عن بعضنا البعض، والرعب قد غلف ملامح وجوهنا من هول المنظر.

يصرخ الجميع كبيرًا وصغيرًا، والشهادتين – لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله– تملأ أركان السفينة بكل مكان، أطفال كثيرٌة تذل أقدامهم ويقعوا على أرض السفينة؛ فتعلو صيحاتهم إستغاثة بأمهاتهم وآبائهم، السفينة تميل أكثر فأكثر والغرق قادم لا محالة، والموت الأسود يحوم في الأفق ويحاصر الجميع.

حضر أبي ولم يجد أي شيء يحمينا من الغرق المحتوم.

أمي تنظر في وجوهنا وتتلمسنا بيديها المرتجفتين، تتلمس ملامحنا وكأنها المرة الأخيرة التي سترانا فيها، تودّعنا والدموع تنسكب من عينيها بحرارة.

أختي جومانا تبكي، تضم أمي بكل ما أوتيت من قوة وتضمني، وتخشى من أن تفلتني.

أخي محمد أصابته هستيريا الخوف من الماء؛ فهو لا يعرف السباحة طوال عمره، يخشى الماء، كنا كلما ذهبنا للشاطئ ننزل جميعا للماء ونسبح ونلهو إلا هو كان يفضل القراءة على الشاطئ حتى لا نضحك عليه لعدم إجادته السباحة، تتعالى صرخاته الآن خوفًا ورعبًا من مصيره المجهول: «لا أعرف السباحة؛ سأكون

أولكم، سأغرق لا محالة؛ فسامحوني»، ينظر إلينا بعيون دامعة، يتوسل للجميع ألا يتركوه للموت فريسة؛ فاحتضنته بكل جزء من جسدي، أخشى عليه من الموت أكثر مما أخشاه أنا على نفسي؛ فهو ليس بأخي فقط، إنه أخي وصديقي وحبيبي، وكل ذكريات طفولتي وشبابي، هو سندي وعضدي في هذه الحياة، هو حمايتي من بعد أبي، لن أتركك يا توأم روحي.

مالت السفينة ميلتها الأخيرة نحو براثن الموت القابع بين أحضان الموج المتلاطم، ينتظر في هدوء افتراس تلك الأرواح التى حان أجلها، وتعالت أصوات شهادتنا وصلواتنا، كل من حولنا يصلي صلاته الأخيرة، مسلمون يتلون القرآن، نصارى يتلون أسفارهم؛ فلا سترات للنجاة ترافقنا، ولا زوارق للطوارئ تكفي للهروب من تلك النهاية المحتومة نهاية الموت، ولا طاقم سفينة حتى يرشد الركاب لأي سبيل للنجاة.

أخبركم بشيء لم أستطع الإفصاح عنه إلا الآن؛ لقد هرب قبطان السفينة مع طاقمه في أول زورق من زوارق النجاة القليلة، وتركوا الجميع يتأهبون لملاقاة الموت وحدهم، يبدو أن كل من هو مسؤول عن هذه المقبرة الجماعية قد تآمروا على ألا ينجو أي شخص من براثن الموت.

أبي يحاول ألا نفترق عند ملاقاة سفح الماء المالح، لكن هيهات يا أبي لقد فعلت كل ما في جهدك يا أعز ما أملك، قريبا أبي يجمعنا الموت سويًا، فلا تخشى علينا إننا جميعا نحبك، فلا تخشى علينا، فلتحتبس الأنفاس فها هي لحظة الفراق الرهيبة قد أزفت أخيرًا.

أمي لا تفلتي ذراعي، أمي أين أنت؟ لا مُجيب.

أبي لا تفلت حضني، أبي أين أنت؟ لا مُجيب.

محمد لا تترك عنقي فلتتشبث جيدًا بي، يا إلهي! لا مُجيب.

جومانا تحدثي إليّ ولا تتركي طرف ملابسي، رحماك يا رب! لا مُجيب.

فجأة شعرت بقساوة البرد القارس والليل الحالك يلف جسدي ويجعلني أنتفض، عندما غاصت السفينة عن آخرها ولا أدري كم من السنوات مرت علي وأنا ألاطم تلك الأمواج وأسبح هنا وهناك، أحاول جاهدة أن أنجو بحياتي، ولن أقول بالطبع: إنني لم أجدْ أيًّا من عائلتي؛ فالكل مِن حولي يصارِع الموت، الجميع يجاهد للنجاة وأنا أبحث عن أي شيء، وأبحث عن اللاشيء، أبحث عن سراب الحياة لأتمسك به بينما يمر من أمامي شريط عمري كله، رائحة الموت رهيبة قوية، ورائحة الفساد الذي تسبب في هذه الكارثة أقوى ولا تخطئه الأنوف ولا العيون، جسدي كله ينتفض لا أكاد

أشعر به؛ فالمياه باردة في هذا الليل القاتم.

أسمع إحدى النساء بالقرب مني تستغيث وما الجديد في ذلك؛ فالكل يستغيث والجميع يتمسك بالحياة بطريقته، ولكن مع استغاثتها صوت آخر جعلني أسبح مسرعةً إليها؛ إنه صوت رضيعها يصرخ من ظلم تلك الحياة التي لم تمهله أن يعيشها بحلاوتها ومرارتها، اقتربت منها لعلّي أمد إليها يد العون؛ فاقتربت في الظلام الحالك نحو الصوت حتى وجدتها، أمسكتُ بتلابيب جلبابها؛ فمدت إلي رضيعها لتحميه بروحها، حتى في مثل تلك النهاية الأم تبقى هي الأم، تضحي من أجل وليدها ولو على حساب أن تفقد هي حياتها؛ فلا بأس أن تفدي وليدها ببصيص من أمل ولو كان زائفًا مستحيلًا، تركتها لأمسك بالرضيع الذي على صدرها فلم يمهلني الموت لأتمكن منه وأنقذه؛ فغاص مع أمه إلى الأعماق يلتمس منها الأمان حتى وإن كان في أمانها الموت ذاته.

أريد أن أفيق من هذا الكابوس الرهيب؛ فلا أعتقد أن هذا يحدث حقيقة.

أريد حضنك يا أمي يحتضني بحنانه ودفئه، أتمنى سماع نبض قلبك وأنا مستلقية على صدرك؛ فهو راحةُ بالي وطمأنينتي.

أريد ذراعيك القويين يا أبي الذي لم يمتدا لي يومًا من قبل بأي سوء لتحتويني، أبي أمي أجيبوني.

لا مجيب لندائي، ولكن أجابتني في تلك اللحظة قطعة خشبية تطفو من بقايا شيء ما على السفينة الغارقة، سبحتُ إليها وتعلقت بها بكل ما أملك من خوف من هذا الموت بكلتا ذراعي المجهدين، وصعدت بصدري عليها والتمست قليلًا من الراحة عليها حتى هدأت أنفاسي المتلاحقة.

ثم بدأت البحث من جديد من بين الجثث التي تطفو على الماء وأنا أتخبط بها يمينًا ويسارًا؛ لعلي أجد أي أحد من عائلتي، وعبثًا حاولت الرؤية فلم أوفّق؛ فتوقفت من جديد للحظات أفكر أين أتوجه بهذا اللوح فالبحر لا نهاية له أمامي، وأخشى أن أبتعد عن المكان؛ فربما تأتي النجدة فلا يجدوني، أو ربما وجدني أحد من الذين يصارعون الغرق؛ فيتعلق بي ويغرقني معه، أوليس الغريق يتعلق ولو بقشة كما يقال!

لحظات لن تمحيها الذاكرة أبدًا ما حييت هذا إن كتب لي الحياة من جديد، وبينما أنا على هذا الحال سمعت استغاثة أحدهم، أسمعه بوضوحٍ، يصرخ: «لا أستطيع السباحة أغيثوني، لا أستطيع السباحة»! هذه كلمات أخي محمد، سبحت تجاه الصوت حتى اقتربت منه في الظلام هل هذا محمد أخي؟

الفصل الثامن
وتستمر المأساة

لا أدري لمَا ظننته محمد أخي، اتجهت نحو صوت الاستغاثة بكل ما أملُكه من قوة، هذا هو، لقد عثرت عليه، أسرعت إليه ولكن من هذا ؟ إنه ليس أخي، إنه شاب متعلق بقطعة خشبية صغيرة يغوص بها ويطْفو، يغُوص ويطفو، لقد أوشك بالفعل على الغرق، تألمت كونه ليس أخي ثم ذهبت إليه على الفور وقدمت إليه يد المساعدة، وقد تناسيت أنه شاب غريب عني ولا يجوز أن أجتمع معه بمفردنا حتى لو كان في مثل ذلك الموقف، لم أفكر إلا بأنه إنسان يستحق المساعدة، ما إن رآني حتى مدَّ ذراعه إليّ متمسكًا بالحياة؛ فأمسكتُ بِيديه وجذبته بقوة وساعدته على أن يتعلق معي على لوحي الخشبي الكبير، وبكل إجهاد شكرني وساد الصمت بيننا وطالت فترة الصمت تلك حتى استجمع أنفاسه وهدأت ثم بادرني قائلًا: «جزاكِ الله خيرًا أختاه، وأشكرك من جديد؛ فأنت قد أنقذتِني من الموت؛ فأنا لا أجيد السباحة»

أجبتُه وأنا لست في رضا عن الوضع المحرج القائم:

- لا شكر على واجب أخي، ولكن لا تتحرك كثيرًا ولا تخاف حتى لا تقوم أنت بإغرَاقنا، حاول أن تكون هادئًا فلسنا في وضع جيد وما زالت الخطورة محيطة بنا من كل جانب.

- نعم أفهم.

فترة من الصمت طالت بيننا وأنا أتحاشى النظر إليه؛ فالوضع يصيبني بخجل شديد، أنا متعلقة باللوحِ الخشبي من جهة، وهو يقابلني من الجهة الأخرى، ومع تضارب الأمواج حولنا كثيرًا ما يتلامس وجهه بوجهي، أعلم أن الموقف لا يساعد على التفكير في أي شيء، ولكن غلبتني تربيتي على التفكير في أن هذا لا يجوز حتى ولو كنت مضطرة، ولكن فلله الأمر من قبل ومن بعد، هذا أمر قد فات أوانه ولن أستطيع أن أغير ما كان.

أفقت على سؤاله:

-لماذا لم تأتِ أي مساعدة حتى الآن، هل مصيرنا هو الضياع في هذا البحر الواسع؟

-سيأتي الفرج عما قريب بإذن الله، صبرًا صبرًا.

أحاول أن أتماسك وأعطيه بعضًا من الأمل وأنا بداخلي ثورة عارمة من اليأس.

-هل فقدتِ أحدًا في السفينة؟

- نعم، كل عائلتي؛ أبي، أمي ،أخي، أختي، وشعرت بغصة في حلقي وترقرقت عَيناي بالدموع.

-أنا آسف حقا، ولكن لا تخافي؛ فلربما ما زالوا على قيد الحياة، سَتجديهم بإذن الله عند بزوغ نور الصباح.

أعطاني الفرصة لكي أنفّث عن حزني.

-وأنتَ، هل فقدت أحدًا في تلك السفينة المنكوبة؟

لمحتُ في عينيه التي كانت تلمع في الظلام بدموع متحجرة.

قال لي وقلبه ينفطر من الحزن: «أما أنا فليس لدي كلمة ربما لأتَعلق بها؛ فلقد فقدت أمام ناظري زوجتي وولدي الرضيع الذي لم يتجاوز عمره خمسة أشهر، وهما كل ما لدي في هذه الدنيا، كم هي قاسية ضربات القدر التي تطعننا بخنجر الحزن طعنة موجعة مؤلمة تُمحى بها كل لحظات السعادة التي مرت بنا لسنوات طويلة في لحظة واحدة»

قالها بكل ألم ولوعة، ثم لم يستطع أن يكتم عبراته؛ فبكى بحرقة يكاد موج البحر يشتعل منها نارًا؛ فلا يبكي الرجال إلا إذا فاقت أحْمالُهم الجبال، ولا يبكي الرجل إلا لشديد، وقتها فقط يكون ضعيفا، أضعف من أي طفل يبكي.

تذكرت مقولة أبي تلك؛ فبكيت أنا الأخرى ولم نجد ما يواسي به كل منا الآخر، لم أجد ما أقوله له، ولم يجد ما يقوله لي؛ ففي أوقات كمثل هذه يكون الصمت هو أبلغ ردٍ من الكلمات، ثم ساد الصمت حتى بدأت خيوط الفجر تنتشر من حولنا وتلألأت صفحة الماء بلون فضي لها بريق كأنها حبات بلور متناثرة في كل مكان، وبدأت معه تتجلى ملامح هذا الشاب الذي يشاركني اللوح الخشبي؛ شاب يافع قوي الجسد، قمحي البشرة، عيناه شديدتا السواد، له لحية منمقة على طريقة أهل الخليج، بلا شارب، وشعر رأسه مجعد قليلًا، زاده ملح البحر تجعيدًا، وسيم الملامح، في العقد الثالث من العمر، نظر إلي فرآني أتأمله فبادرني قائلا: «أنا أحمد أبو اليزيد من القاهرة، وأخشى أن أقول لكِ أننا في أمس الحاجة الآن لأن نتقرب إلى الله بالصلاة! فقد بزغ الفجر ونحن لم نؤدِ صلاته».

تعجبت من كلماته الطيبة المهذبة وتدينه في مثل هذا الوقت العصيب، ولكني أجبته بتلقائية وأخبرته اسمي: «وأنا ياسمين من الإسكندرية، ولي استفسار هل في مثل هذا الوضع نستطيع أن نصلي؟ كيف نصلي والماء يغمرنا والقبلة مجهولة، وتلعثمت في باقي الجملة وأنا بجوار رجل غريب عني...»

فقاطعني موضحًا: «أنا أعلم أنك في موقف صعب ولكن أنت الآن في حكم المضطر وتستطيعين أن تصلي دون أن تعرفي القبلة؛ فأينما تولوا فثم وجهُ اللهِ، وما عليك سوى أن تتجهي بقلبك وخشوعك، وأن تُومئي برأسك بحركات الصلاة وبإذن الله تتقبل منك صلاتك ودعائك، فإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»

اطمأن قلبي لكلماته الهادئة الواثقة؛ فوافقته وقلت له: «إذًا فلنصلِّ»

التزم كل واحد فينا الصمت، وصَلينا ركعتي الفجر، لا أكذبكم القول، لقد كنت أنا التي أنهت صلاتها أولًا؛ فسلمت يمينًا ويسارًا، وما أن انتهيت بالسلام ونظرت من حولي لأرى الشمس تشرق حمراء من بين الماء لتضيء البحر كله بلون أحمر دامي، وصدرت من بين شفتي شهقة، ويا ليتها لم تشرق الشمس!

الفصل التاسع
يا ليتها لم تشرق الشمس

«يا ليتها لم تشرق شمس هذا الصباح» قلتُ ذلك بأسى شديد عندما لاحت صفحة المياه من حولي، ومع بزوغ الشمس من وراء بعض السحب التي ملأت كبد السماء معلنة عن غضبها هي الأخرى لبشاعة ما قد تراه عين من كثرة الأجساد التي تطفو على سطح الماء؛ فالغرقَى بالعشرات... لا، قل بالمئات.

انهمرت الدموع حارّة من عيني، وتعالت صرخاتي ونحيبي، وأحمد في ذهول والرعب قد ملأ عينيه، ويخشى أن يقوم بأي حركة تفقده توازنه؛ فيغرق مثل باقي الغرقى، يا له من شعور رهيب! شعور الإنسان بالعجز أمام جندٍ واحد من جنود الله، هذا الجندي الذي أغرق أقوى جيش في العالم، جيش فرعون الذي غرق في هذا البحر ذاته، والآن يغرق فيه المئات ليكون هذا البحر شاهدًا على من غرق على كفر ومن غرق على طاعة؛ فلله الأمر كله من قبل ومن بعد.

تنبه أحمد بعد ذهولٍ على صوتي وأنا أخاطبه من بين دموعي: «أحمد تشبث باللوح جيدًا؛ فأنا سأتركه»، قبض أحمد على اللوح بكلتا يديه والخوف يتملكه، ولكن كبريائه كرجل أرغمه على ألا

يصارحها بخوفه، تركتُ اللوح ثم سبحت اتجاه بعض الأجساد الطافية من هنا وهناك؛ لعلي أجد أي بارقة لحياة أو لعلي أجد أحدَ أفراد عائلتي، سبحت كثيرًا حتى أنهكني التعب؛ فعدت إلى أحمد مرة أخرى، وتمسكت باللوحِ الخشبي من جديد لألتقط أنفاسي المتلاحقة من السباحة ثم قلت له:

– هل يمكنك أن تفعل مثل ما أفعل وببطء ودون خوف، إننا نطفو بسبب هذا اللوحِ الخشبي فهو ثابت، وكلما حافظنا على ثباته سنظل بأمان، أنا أطلب منك فقط أن تضرب بقدميك الماء بكل بساطة ودون تسرع.

– ولمَ أضرب الماء بقدمي؟

– حتى نجعله كما المركب الصغير ؛فيسير بنا للوصول إلى تلك الأجساد الطافية على سطح الماء؛ فنبحث فيها كلها، وأنا أتمنى ألا أجد أحدًا فيها أعرفه وقد طفت، هل تستطيع مساعدتي؟

– بالتأكيد؛ فأنا أريد ذلك أيضًا لعلّي أجد زوجتي أو طفلي لألقي عليهما نظرتي الأخيرة.

وانطلقنا نضرب الماء بأقدامنا بعد أن أصبحنا على نفس الجهة ذاتها من اللوحِ الخشبي، وأجسادنا متجاورة، صادفتنا كثيرًا جثث تطفو لا حصر لها دون جدوى، ولقد كان القدر رحيمًا بنا؛ حيث

إننا لم نجد مبتغانا، ابتعدنا كثيرًا عن مكان غرق السفينة، وابتعدنا رويدًا رويدًا حتى أصبحت الشمس فوق رؤوسنا في وسط السماء وحل بنا التعب والعطش، هنا قال أحمد: «لنرتَح قليلا يا چاسمين ونصلي الظهر فقد وجب»

تنهدت وقلت: «نعم نحن في حاجة إلى الراحة قليلًا، فلنصلِّ»

غَلف الصمت من جديد على لَوحنا الخشبي وشرعنا في الصلاة إلى أن انتهينا منها، بادرتُ أحمد بسؤال: «أحمد هل تعتقد أن هناك من يبحث عنا في هذا الفراغ الكبير أم أننا سنموت أيضًا ولكنها مسألة وقت ليس إلا»؟

أحمد بيأس: «من فضلك يا چاسمين لا تجعلي اليأس يسيطر علينا، إن الله وحده هو الذي يعلم مصيرنا؛ فلندعُ الله بأن يفرج عنا كربنا، فأنا أدعوه أن يكون بنا رحيمًا وأن يرسل لنا من ينقذنا من هذا الأمر أو يرحمنا ويقبضنا على طاعته ونكون من زمرة هؤلاء الشهداء؛ فالغريق شهيد»

– نعم الحق معك، هيا بنا نبحث مرة أخرى من جديد، فإن الوقوف في الماء بدون حركة سوف يصيبنا بالبرودة، والحركة الدائمة تولد الدفء.

انطلقنا نضرب بأقدامِنا الماء ببطء، وابتعدنا أكثر وأكثر عن السفينة الغارقة لعلنا نعثُر على أي شيءٍ جديد يدل على حياة أو حتى على موت، لاح من على البعد أجساد أخرى تطفو على سطح الماء، اقتربنا منها: يا إلهي إنهم أحياء، هل يُخيّل لنا أم أنها حقيقة؟

اقتربنا على الفور؛ نعم إنهم أربعة من الأحياء؛ ثلاث نساء يمسكن بلوحٍ خشبي مثلنا، ورجل يرتدي سترة نجاة، لم يتكلم أي شخص منهم فقد أخذ التعب، والجوع، والعطش، وقلة النوم منهم مأخذه.

وهكذا انضم الجميع في تلك الدائرة من الصمت وكأن هو ما تبقى لنا من حياة لحين وصول الموت. دقائق تمر وكأنها جبال تتجمع مع جبال أخرى حتى تتكون منها ساعة، ثم تتكون ساعة أخرى والأجساد قواها تخور، ووصل التعب إلى أقصاه ساعة بعد ساعة، وتلت الساعات ساعات ولا بارقة أمل في وصول الإغاثة، نسج الليل خيوطه من جديد ودبّ اليأس بداخلنا، والجميع يصارع الماء البارد، والجوع، والعطش، والنوم، كل المهلكات مجتمعة حتى بزغ ضوء صباح اليوم الثاني، قالت إحدى النساء بصعوبة بالغة: «لم أعد أشعر بجسدي، لقد نفد جهدي» رد أحمد عليها بنفس الضعف: «لا تقنطي من رحمة الله سيدتي»

ثم نظر إلى السماء ودعا الله بصوت كله رجاء: «يا من يجيب المضطر إذا دعاه، أدعوك أن ترسل لنا الغيث، وقسمًا بمن فطر السماء والأرض ما إن انتهى من دعائه حتى لاحت من بعيد سفينة أو ما شابه لست أثق في ذلك؛ فالرُؤية مهزوزة ضبابية، ولكن الجميع يراها مثلي؛ إذًا هي حقيقة وليست سراب، هل أحمد هذا من الذين قال فيهم نبينا الكريم: «رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره»؟ ربما ولمَ لا؛ فهو قريب من رب العالمين. ظهر بعض السرور أخيرًا على وجوهنا لاقتراب تلك السفينة العملاقة ببطء نحونا؛ فهل سترانا أم ستمر من فوق أجسادنا دون أن ترانا؟

... عند تلك اللحظة: «هل تعذرني يا دكتور عادل وتجعلني أكمل لك أحداث القصة في الغد؛ فإن قلبي يكاد يتمزق من الحزن وقد بلغ بي التعب منتهاه لهذا اليوم»

قالتها چاسمين لعادل الذي يجلس أمامها في حديقة المستشفى، وقد هبط على رأسه الطير وهو ينظر إليها بكلِّ عطفٍ وتأثرٍ بأحداث روايتها، يظهر عليه أشد علامات الأسى، تململ عادل من جلسته وقال لها بلا وعي منه: «لقد عانيتِ أهوال كثيرة يا چاسمين، كيف لفتاة مثلك تتحمل كل تلك الأهوال والحزن؟ أنت حقا بطلة بكل ما تحمله الكلمة من معنى»

ثم وقف ومد يده إليها ليساعدها على الوقوف قائلًا: «هيا أساعدك للدخول إلى غرفتك؛ فأنت تحتاجين إلى الراحة الآن»

مدت إليه يديها واستندتْ عليه، وقامت وهي تنظر إليه بنظرة مختلفة في عينيها تجاهه ثم بادرته قائلة:

– دكتور عادل لي رجاء، أريد منك أن تعدني بتحقيقه لي.

– بكل امتنان سأحقق لك رجاءك إن كان باستطاعتي تحقيقه، فما هو هذا الرجاء؟

– من فضلك يا دكتور عادل؛ ألمحُ في عينيك بوادرَ حبٍ أستطيع أن أراه جيدًا وبكل وضوح؛ فأرجوك وأستحلفك بالله ألا تنساق وراء ذلك الشعور؛ فأنا لا أريد أن أكون سببًا في إصابتك بجُرحٍ فأنت رجل رائع حقا، وأنا لا أستحق ولا أصلح.

الفصل العاشر
رأيتك هل تصدقيني؟

چاسمين تستند على ذراع عادل متوجهة إلى غرفتها قائلة: «أنا لا أريد أن أكون سببًا في إصابتك بجرح؛ فأنت رجل رائع حقًا، وأنا لا أستحق ولا أصلح»، قاطعها عادل مستفسرًا: «چاسمين، لماذا تقولين ذلك؟ هذا كلام سابق لأوانه، ولكنني أحييكِ على أنك قد قرأت ما في عيني من مشاعر؛ فلقد كنتِ أجرأ مني في ذلك، هل تسمحين لي أن أخبرك بما لم تقرَأيه بعد فيهما»؟

توقف عادل عند أقرب مقعد وساعدها على الجلوس قليلًا لتلتقط أنفاسها المجهدة من آثار السير؛ فهي تستند على ذراعه من جهة وتمسك بعكازها بذراعها الأخرى، ثم قال لها على الفور: «ما لم تقْرأيه چاسمين في عيني؛ هو أنني رجل لا أطمع في مغامرة عاطفية للفوز بقلب فتاة فاتنة مثلك كما الشباب الصغير وحسب، فما لم تقْرأيه چاسمين في عيني منذ أن حملتك لأضعك داخل سيارتي حتى أحضر بك إلى هذه المستشفى؛ وأنا لسببٍ ما أيقنت أن الله قد أرسلك إليّ فأنا لم أعرف معنى الحب من قبل، ولا أعرف كيف هو شعور المحب، وهل بالفعل هناك شيء يدعى الحب الأول

والحب من نظرة واحدة؟ أنا أجهل كل تلك الأمور ولم أمر بها من قبل، لقد كنت أجلس في سيارتي أخاطب سائقي عم عارف قائلا له:

«لا ولد، لا بنت، لا حب، لا أسرة، لا بيت، لقد مضي العمر دون أن أشعر به؛ فكل عمري أضعته في العلم والتعليم، وسفر للخارج ومؤتمرات طبية هنا وهناك، وأبحاث وتشريح وما إلى ذلك، أما عن الدفء فلم أبحث عنه مطلقًا.

وأما عما أشعر به الآن تجاهك فلم يكن في قاموس حياتي أبدًا، كنت أخاطب سائقي بذلك وشردت وبداخلي يبكي على ما مر من عمري؛ فدعوت ربي بكل ما في صدري من ألم وحزن أن يرزقني الحب أن يرزقني البيت والأسرة، فكرت كثيرًا في عمري الأربعين التي مضت، وظللت أدعوه وأدعوه وأدعوه، أعلم جيدًا أنك ستعتقدين بأنني مجنون لما سأخبرك به الآن ولكني رأيتك، نعم رأيتك بكل ملامح وجهك كما أراك الآن، رأيتك في ومضة خاطفة، وتلاقت عينيَّ بعينيك، ولا أعلم هل هي ثانية واحدة أم أقل من الثانية؟ ولكنها كانت كفيلة بأن أحفر كل ملامحك بداخلي، ثم اختفيت على صوت عم عارف وهو يقف بالسيارة محوقلًا عندما صادفنا الحادث، أفقت من شرودي وهرولت مسرعًا إلى الحادث لأقوم بواجبي كطبيب، حاولت إسعاف أي شخص في الحادث،

الجميع كانوا موتى، إلى أن وصلت إليكِ أنتِ ولمست جسدك، فتسارعت نبضات قلبي، وخفقت خفقانا لم أشعر به من قبل طوال أيام حياتي، بعدها قابلتني رعشة أهدابك وفتحتِ عينيك للحظة، كانت تلك اللحظة كفيلة بأن تخبرني أنك إجابة دعوتي لربي، وأنك أنت التي رأيتها توًا في مخيلتي، وأغلقت عينيك من جديد، وأصابتك الغيبوبة فهل أنا واهم أم أصابتني أعراض مراهقة متأخرة كما يقول حفني عني؟

لا والله، أنا أثق في اختيار الله لي ولن أتنازل عنكِ مهما كنتِ من أنتِ إلا...»

صمت برهة ثم أكمل قائلًا: «إلا إذا كنتِ أنتِ التي سترفضينني وتردين إليَّ قلبي، ووقتها فقط لن أستطيع أن يكون لي أي خيار في أن أبادر بالابتعاد عنكِ لاحترام رغبتك أنتِ، وأنتِ فقط دون غيرك. ولذلك أرجوكِ أن لا تحكمي مقدمًا على نفسك بعدم الاستحقاق وعدم الصلاح، فهذا أمر سابق لأوانه كما أخبرتك من قبل».

قام عادل من جديد ومد لها يديه ليعينها على الوقوف مجددًا، وعلى وجهه أجمل وأعذب ابتسامة صادرة من أعماق قلبه العاشق، قلبه البكر مرددًا لها: «هيَّا، باقي خطوات قليلة لترتاحي في غرفتك؛ فلدينا الكثير والكثير لنفعله غدًا إن شاء الله».

نهضت چاسمين وعلى وجهها علامات التعب وعلامات الامتنان والخجل من كلماته التي أذابت بحرارتها جليد قلبها، بل حلّقت بها وبقلبها إلى عنان السماء كما الطير وهو يرفرف بجناحيه، يريد أن يصل بهما إلى أقصى أطراف السماء من سعادته، وخاطبت نفسها بتساؤل ودهشة: «من هذا الرجل الذي اقتحم أعماقي وتوغل داخل صدري وأصاب القلب بدون أي استئذان؟ من هذا الذي دغدغ أوصال جسدي كله بكلمات عذراء تخصني أنا وحدي دون باقي بنات حواء؟ من هذا الذي جعل الحياة لها معنًى جديدًا بعدما يئست من العيش فيها؟ وهل من حقي أن أُحِب أو أُحَب؟

فلتتمهلي قليلًا يا چاسمين بالله عليكِ، لعله يتغير عنكِ عمّا قريب».

أفاقت من شرودها مخاطبِة إياه بصوت يكاد لا يغادر شفتيها: «كم هي سعيدة الحظ يا دكتور عادل من تعرفك أو تظفر بك؛ فأنت بالفعل رجل رائع، إنك نبيل وشهم»، ثم تلعثمت وقالت بتردد: «ولذلك رجائي منك ألا تتسرع بالحكم عليّ قبل أن تستمع لباقي قصتي التي كنت عاهدت نفسي على ألا أكملها لك، أو كنت سأتجاهل أجزاءً متعمدة أن أتجاهلها، أما الآن فصار لزامًا عليَّ أن أقُصها كاملة؛ فهذا حقك الذي لن أستطيع أن أهرب منه، وبالطبع

لن ألومك على تغيير رأيك في من تخيلتها في عقلك الملاك البرئ أو الفراشة الرقيقة، فدائمًا ما يكون الجمال هو سر التعاسة، ونقمة على صاحبته بدلًا من سعادتها».

جلست على سريرها وهي تكمل حديثها: «فلتنصت لي جيدًا من فضلك...» قاطعها عادل: «فلنجعل ذلك في الغد بإذن الله، فغدًا...»

قاطعته هي بدورها: «بل الآن من فضلك، لو يسمح لي وقتك فلتجعلنِي أكمل قصتي».

الفصل الحادي عشر
الكَــابُوس

شيء ما مختلف يحدث، السكون والظلام يغلّفان اللا شيء من حولي، هل أسمع أنفاسي؟

أنا لا أرى سوى الظلام الدامس الحالك، وجسدي الذي لا أراه أشعر به يرتجف بردًا.

لا، لا يرتجف فقط، بل ينتفض، والألم يعتصر كل جزء فيه اعتصارًا، ويكاد رأسي ينفجر، فهل أنا...؟ أوه يا رباه، من أنا؟

أكاد لا أعرف نفسي، من أنا؟ هل أصابني الجنون؟

أم ماذا حدث؟ فلست حقيقة أدري، كل شيء صامتٌ صمتًا يؤدي إلى الجنون، كل شيء مظلم؛ أرفع يداي أمام وجهي فلا أراهما أمام عيناي، فهل أنا في قبري أم أنا نائمة ولم أصحُ بعد؟ خطر بخلدي إجابة أزالت حيرتي قليلًا، هل عيناي أساسًا مفتوحتان أم أنهما مغلقتان ولذلك لا أرى أي شيء من حولي؟ خاطبتني نفسي قائلة: «أيتها البلهاء، فلتفتَحي عينيكِ أولًا؛ لتري النور من حولك»، ها أنا ذا أحاول جاهدةً أن أفتحَهما ولا أستطيع، سأبذل جهدًا أكثر، أيضًا لا أستطيع، إنهما ثقيلتان إلى أقصى حد؛ إذن أنا ميتة

لا محالة. فليساعدني أبي، صرخت على أبي، لم يستجِب أحد لصرختي وندائي. فلتساعديني أماه، صرخت على أمي، أيضًا لم تستجِب هي الأخرى لندائي وصرخاتي.

أين أنا؟

ساعدوني!

دوت صرختي في أرجاء المكان وتلتها انتفاضة من جسدي للأمام، فانقشع ظلام الغرفة من حولي فجأة، ووضح لي كل شيء أمام عيني عندما قمتُ من على السرير الذي كنت نائمة عليه بعنف وأنا ألهث، وأنفاسي المتلاحقة تتسارع، فأنظر حولي بفزع، وتلاشى كل الغموض من حولي واطمأننت قليلًا بعدها، لقد كنت أمرُّ بكابوس.

انقشع الظلام الزائف الذي كان يراودني في هذا الكابوس، سألت نفسي: «هل كل هذا مجرد كابوس ليس إلا؟ يا له من كابوس مزعج! هل غرق السفينة كان ضمن أحداث هذا الكابوس؟» إذًا فعائِلتي ما يزالون على قيد الحياة! ولكن تُرى، أين هم الآن؟ والأهم أين أنا؟ إنني بغرفة صغيرة لم أعهدها من قبل، تبدو أنها غرفة بباخرة أيضًا؛ فالغرفة ضيقة جدًا، والسرير صغير أيضًا، والأرض تتمايل من تحت قدمي يمينًا ويسارًا.

أزحت الغطاء الذي كان يغطي جسدي لأنهض من على السرير، ويا لهول ما رأيت! نظرت إلى جسدي فلم أجد أيَّ ملابس تسترني، إنني كيومِ ولدتني أمي! تسارعت دقات قلبي، وتملّكني رعب من نوعٍ آخر، رعب تخشاه كل فتاة من يوم ولادتها وإلى يوم أن تكبر، ويلازمها حتى تودعَ دنياها وتموت، خوف ترثه الأنثى، وكلما كبرت يومًا كبر معها هذا الخوف، خوف أن تحمي الأنثى أنثاها التي بداخلها من كل من تسوِّل له نفسه أن يتلصص عليها، وعلى هذا الجسد ومفاتنه.

أمسكت بالغطاء دون وعي مني وضممته إلى جسدِي المرتجف، وانهمرت من عيني دموعٍ غزيرة رغمًا عني؛ فهذه المرة ليست ككل مرة. التحفت جيدًا بغطائي وتوجهت إلى باب الغرفة أفتحه، وجدت نفسي في طرقة طويلة بها أبواب مماثلة لبابي، فرجعت بضعة خطوات للخلف وأغلقت الباب خلفي، وانهرت بجسدي على حافة السرير ولا أعلم ماذا أصنع، ثم سألت نفسي من بين دموعي المنسكبة:

«يا ويلي! أين أنا؟ ولماذا أنا عارية هكذا؟»

أحاول جاهدة أن أسترجع ما حدث لي، إن آخر شيء أتذكره أنني كنت متعلقة بقطعة من خشب في عرض البحر وبجواري أحمد،

أنظر إلى سفينة ما تتهادى على الماء من بعيد، وتقترب منا ومن الآخرين، كان كل ما أخشاه أن لا تراهم، فماذا حدث بعد ذلك؟ ماذا حدث؟ أكاد اجن؛ إنني لا أستطيع تذكر ما بعد تلك اللحظة.

التحفت من جديد، وبقوة ضغطتُ على ما يسترني من غطاء وقمت وتوجهت إلى الباب مرة أخرى، بعدما استجمعت بعضًا من شجاعتي ورباطة جأشي؛ خرجت من الباب ووقفت في الخارج أترقب، وناديت بصوت عالٍ: «هل يسمعني أحد ما هنا؟ هل يوجد أي شخص أكلمه؟»

تهادى إلى مسمعي صوت أقدام تقترب من آخر الرواق؛ فرجعت إلى داخل الغرفة من جديد وتواريت خلف الباب، اقتربت الخطوات أكثر، وكلما اقتربت تسارعت نبضات قلبي الصغير خوفًا وترقبًا، حتى وقفت تلك الأقدام أمام باب غرفتي وترقبت أن يدخل صاحب تلك الخطوات فلم يدخل، ولكن فاجأني صوته فقط متسائلًا بصوت أجش جعل الدْماء تتجمد في عروقي: «حمدًا على السلامة يا ابنتي».

قاطعتُهُ مرتجفة: «أرجوك، أين ملابسي أولًا؟»

أجابني على الفور: «ثوانٍ، سأذهب لإحضارها لكِ ومعها قليل من الطعام، لا تخافي؛ فأنتِ الآن في أمان».

لاحظت في صوته نوعًا من الأمان، وإن كون صوته أجشَّ لا ينم عن شر لها بالضرورة.

ابتعد صوت الأقدام من جديد؛ فاطمأننت إلى أن صاحب هذه الخطوات لا يكن لي أي شرٍّ، ولكن لماذا جُردِتُ من ملابسي؟ ومن هذا الشخص؟ وكيف وصلت إلى هذه الغرفة؟ كل هذه تساؤلات تدور بعقلي، لا أجد لها إجابة، أكاد أصاب بالجنون.

ما هي إلا دقائق معدودة وعاد صوت الخطوات يقترب من جديد، أترقبُ وصوله وأنا ما زلت خلف الباب أتوارى وأمسك بكلتا يداي الغطاء، وما أن توقفت الخطوات في الخارج حتى بادرني الرجل بكلماته معطيًا لي يديه من وراء الباب معلقًا بها ملابسي: «يا ابنتي، فلترتديها سريعًا»؛ فأخذتُها منه على الفور وأغلقتُ الباب، ووقفت وراءه أرتدي سريعًا ملابسي، وما أن انتهيت حتى فتحت الباب على مصراعيه لأرى الرجل واقفًا خلف الباب ومعه بعض الطعام والشراب كما قال لي.

كان رجلًا يبلغ من العمر خمسين عامًا على الأقل، أسمر البشرة، له شارب كث، مجعد الشعر، يرتدي ملابس العمال (كافroول) أزرق، قال لي على الفور وهو يبتسم ابتسامة انفرجت بها شفتاه، وأظهرت أسنانًا صبغتها لفائف التبغ بلون بني داكن: «أنتِ في أمان

الآن، لا تخافي يا ابنتي، إن جميع الناس الذين كانوا معكِ على ظهر السفينة بالأعلى».

قاطعته شاكرة وبتساؤلٍ بادرتُه: «أشكرك، ولكن كيف حضرت إلى هنا؟ ولماذا كنت مجردة من ملابسي؟ وماذا حدث؟! أنا لا أتذكر أي شيء مما حدث».

أخبرني بصوت لمست فيه حنان الأب: «أنتِ هنا منذ ساعتين فقط، وجدناكم أحياء، ولكن يبدو أنك كنتِ تعانين التعب فأصَابتك إغماءة ونحن ننْتشلكم من البحر، وكان جسدك كله يرتعش والماء قد أصاب جسدكِ بما يشبه الشلل؛ فحملناكِ أنا وطاقم السفينة إلى غرفتي هذه، وأعطاكِ رئيس العمال بالسفينة بعض الحقن، ولأن ملابسك كلها مبتلة؛ كان لزامًا علينا للحفاظ عليكِ أن نجردكِ منها؛ لكي تشعري بالدفء بعد أن وضعنا عليكِ ذلك الغطاء الثقيل ليستعيد جسمك دفئه، هل اطمأننتِ الآن لما حدث لكِ؟ سأتركك بضع دقائق تتناولين فيها طعامك؛ لتستردي بعضًا من عافيتك، وسأعود إليكِ لنصعد إلى ظهر السفينة لمقابلة شخص ما يريد أن يتكلم معكِ بعد أن تنتهي من الطعام، إنه الآن يتحدث مع الآخرين».

قلت له: «ومن هذا الشخص الذي يريد الحديث معي»؟ قال

لي وهو ينصرف: «إنه رجل من رجال الأعمال أو ما شابه ذلك، فأنا لست إلا عاملًا هنا ولا أعرفه؛ فلقد صعد إلى السفينة ومعه كمّ من الرجال مفتولي العضلات –أعتقد أنهم حراسه الشخصيين– منذ قليل عن طريق يخت اعترضنا ونحن في الطريق؛ لذلك لن أستطيعَ أن أفيدك كثيرًا.

فلتنتهي من الطعام وسأعود بعد قليل لأصعد بكِ إليه».

أشاح بوجهه عني ولم ينتظر مني ردًا على كلامه، وانصرف على الفور وتركني خلفه أصارع المجهول؛ للبحث عن إجابات لما يدور في عقلي من عواصف الأسئلة التي لا حصر لها عن وضعي الحالي، فمن هو ذاك الرجل؟ وماذا يريد مني؟ وهل يعرفني؟

الفصل الثاني عشر
الفاسدون

توجهت مع هذا الرجل الطيب إلى أعلى ظهر الباخرة؛ لأقابل ذاك الذي لا أعرفه ويريد التحدث معي كما أخبرني مرافقي، لكنه توقف على إحدى درجات السلم المؤدي إلى السطح فجأة، ثم استدار إليَّ ففاجئني توقفه المباغت؛ فصدرت من بين شفتي شهقة عفوية، أمسك ذراعي بقوة والتفت يمينًا ويسارًا ليتأكد من أننا بمفردنا ولا أحد يسمعنا، ثم قال وعلى وجهه نظرة تحذيرية خائفة: «إذا ما أردتِ لنفسك النجاة يجب عليك أن توافقي على ما يطلبونه منكِ»، ثم ترك ذراعي وأشار إلي بسبابته موضحًا أتفهمين؟

ثم أشار إلى أعلى السفينة بسبابته وقال: «هؤلاء الملاعين ليسوا بشرًا مثلنا؛ فهم لا يرحمون من يخالفهم، أنت فتاة في عمر الزهور فلا تلقي بنفسك إلى التهلكة يا ابنتي»

أجبته وعلى ملامح وجهي الخوف من تحذيره: «أنا لا أفهم مما تقوله أي شيء يا عماه من هؤلاء وماذا تقصد»؟

قال لي على الفور: «ستفهمين ما أعنيه عندما تلتقين بهم، وسأقابلُك عندما تخرجين من عندهم، وسأشرحُ لكِ كل ما عرفته

عنهم فيما بعد، أما الآن فلا بد أن تعملي على أن تخرجي من حديثك معهم بأقل خسائر ممكنة؛ لأن عدم موافقتك على ما سيطلبونه منك معناه أنك ستعودين إلى البحر من جديد لتغرقي فيه، وسوف يتأكدون من غرقك قبل انصرافهم؛ فلقد رأيتهم بعيني وقد أغرقوا سيدة ورجل دون أن يرمش لهم طرفة عين وبكل قسوةٍ، ويبدو أنهما قد رفضوا مطلبهم؛ فكان جزاؤهم الغرقَ، فأنتم في عرف الغرقى بنيتي ولا يعلم عن نجاتكم أحد، والجميع هنا يبدو أنهم خائفون من شيء ما أو أنهم متواطئون في شيء لا أعلمه»

ثم أشار بذراعه إلي وهو يردد: «لقد حذرتك يا ابنتي، وأخبرتك بما يمليه عليَّ ضميري، ولكِ أن تفعلي ما تشائين؛ ففي النهاية أنا لم أخبرك أو أحذرك؛ فأنت صاحبة القرار الأول والأخير، ورجاءً أنا لم أخبرك بأي شيء؛ فأنا رجل ضعيف ولا أستطيع أن أقف أمامهم»، ثم دفعني برفق أمامه لأتحرك إلى سطح السفينة دون أن أستوعب ما يقوله جيدًا سوى أنني أصبحت أعلم فقط أنني أخطو خطوات نحو المجهول، وأنني لا بد وأن أوافق على شيء لا أعلمه من قبل أن أعلمه.

صعدت أخيرًا إلى سطح السفينة التي على ما يبدو أنها سفينة

صيد للأسماك، وليست سفينة للركاب أو للبضائع كما كنت أتخيل. وطأت قدمي أثناء سيري على شباك صيد ملقاة هنا وهناك، وكثير من ثلاجات حفظ الأسماك ورائحة الأسماك تُنفِّر، وأثناء مروري رأيت بعضَ الناسِ يفترشون الأرض؛ فمنهم من كان جالسًا، ومنهم من كان نائمًا وعلى وجوههم آثار الإجهاد والتعب واضحة. بحثت من بينهم بعيني على أحد من عائلتي فلم أجد من بين هؤلاء الناس إلا وجهًا واحدًا مألوفًا لدي إنه أحمد جالس منكسرًا، توقفت ثم صحت عليه باسمه لألفت نظره إلي، وما أن تلاقت عيناي بعينيه حتى هبَّ واقفًا من جلسته ثم صاح بي دون أن يستطيع أن يأتي إلي؛ فلقد كان شخص ما يصوّب سلاحًا تجاه الجميع؛ فقال لي بصوت كله رجاء: «چاسمين، أرجوكِ لبِّي طلباتهم لتنجي بحياتك، إننا الآن لا نختار مصيرنا؛ فكلها أقدار الله وقدره، ونحن في حكم المضطرين ولا ذنب علينا إن شاء الله، أرجوك چاسمين لا أريدك أن تفقدي حياتك»

أجلسه من كان يحمل السلاح رغمًا عنه؛ فأشَحت بوجهي بعيدًا لأخفي ملامح الرعب التي ارتسمت عليه وأنا أفكر في مصيري وما هو الذي لا بد وأن أوافق عليه. سرت من جديد مع مرافقي لعلّي

أصل إلى ما ينهى تلك المهزلة التى أواجهها، دفعني مرافقي أمامه برفق إلى داخل غرفة كبيرة الحجم الى حد ما؛ بها منضدة يجلس على أحد أطرافها شاب صغير السن، فهو لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره بعد، يرتدي ملابس فاخرة، ونظارة شمسية تخفي كثيرًا من وجهه الأبيض، وتراصّت على جانبي المنضدة بعض المقاعد الخشبية، ووقف بجواره ثلاثة من الرجال مفتولي العضلات، يرتدون ما يرتديه الحراس الشخصيين من بدل سوداء، ونظارات شمس سوداء، وكل منهم يحمل بجانبه سلاح صغير الحجم مقارنًة بأحجامهم الكبيرة. وما إن وطأت قدما چاسمين المكان حتى دعاها الشاب للجلوس أمامه مشيرًا إليها بيديه وبلهجٍة أمر قال: «اجلسي»، ثم بحركة سينمائية متصنعة مع صفير إعجاب من بين شفتيه، خلع نظارته من فوق عينيه وقال لها: «وااااو، يا لك من فاتنة»!

ثم سألني وأنا صامتة أنظر إليه بخوف: «ما اسُمك يا جميلة الجميلات»؟

تلعثمت قليلًا وبصوت مبحوحِ قلت: «چاسمين»، ثم صمتت؛ قال لي على الفور وكأنه لم يكن يتغزل بي منذ لحظة، وتحدث بكل جدية وهو يشير للرجل الذي قادني إليه بالانصراف، ثم أردف لي

قائلًا: «أنصتي لي جيدًا؛ فوقتي ثمين، ولن أكرر كلامي لك مرتين؛ فلْتستوعبي وتُقرري»

اعتدل في جلسته، ووضع ساعديه على المنضدة، وأسْند ذقنه على راحة يده ناظرًا إلى عيني مباشرة؛ مما جعلني أخشاه أكثر، ثم قال وكأنه يقر حقيقة معلومة للجميع: «أنت الآن في نظر الحكومة المصرية إما غريقه أو مفقودة، فلا أحد يعلم سوانا بأنك قد نجوت، خياري لك قائم على شقين؛ إما أن تظلي في نظر الجميع ميتة وأنت ما تزالين على قيد الحياة بشروط سأخبرك بها لاحقًا، أو تموتين حقًا والجميع لديه علم بذلك مسبقًا»

تجرأت وقلت له بنفاد صبرٍ: «لا أفهم عرضك لي، من فضلك وضّح لي ما أستطيع من خلاله إختيار ما أفهمه، وبداية ألا أستطيع أن أعرف أولًا من أنتَ

وماذا تريد مني بالضبط»؟

أشار إلي أن أصمت وهو يتفحصني بعينيه وكأنه يخترق كل جزء من جسدي بسهام شهوةٍ ملعونة تكاد تخترق ملابسي وتحرق كل مفاتن جسدي حرقًا؛ فتلعثمت ووضعت كلتا يدي على بروز نهدي، أريد أن أخفيها عن مرمى نظراته العابثة بهما، وصمتت وقد أطرقت

عيني أرضًا لأهرب من نظراته لي وتفحصه لجسدي بتلك الطريقة المهينة؛ «أما من أنا فهذا شيء لا يعنيك معرفته» قالها الشاب باستهزاء، ثم قال متممًا كلامه: «وأما عن فهمك فلا تتعجلي ستعرفين كل شيء حالًا بعد إجابتك على سؤالي هذا أولا، هل تعلمين لمَ غرقت السفينة التى كنت فيها أنت كأحد ركابها من وجهة نظرك؟ هل لاحظت أي شيء يثير شكوكك في كونها غرقت قضاءً وقدر» ؟

– كل شيء في هذا الكون يسير بقضاء الله وقدره على قدر فهمي وتعَاليم ديني، ولكن الله يجعل لكل أقداره سببًا نستطيع بعقولنا المحدودةِ أن نفهمه بوجود هذا السبب؛ فوجودي أنا هنا مثلا هو قضاء الله وقدره، أما ما أفهمه عن ماهية سبب وجودي هنا؛ فالسببُ هو غرق السفينة ونجاتي من الغرق فيها هو ما جعلني الآن هنا؛ ولذلك فغرق السفينة هو حتمًا قضاء الله وقدره، وسبب غرقها أعلم منه القليل فمثلا؛ عدم وجود وسائل حماية لمكافحة الحرائق في السفينة؛ جعلها لا تصمد وتغرق أمام حريق شب في باطنها، وأسْباب غرق الركاب هو عدم وجود خطة إنقاذ بين طاقم السفينة كالقبطان ومعاونيه مثلا، ولا وجود لسُترات نجاة نرتديها وقت الغرق، ولا وجود لزوارق تكفي للهروب من السفينة للخارجِ،

حتى أن القبطان وأفراد طاقمه قد هربوا أولا على زورق خاص قبل الركاب، وتركوهم يصارعون الموت وحدهم دون أي مسئولية منهم كقادة مسؤولة أمام الله قبل البشر.

قاطعني الشاب وهو فاغر فاه من صدمته بلباقة جوابي، وسلاسة الحديث الذي ينساب من مبسمي عذبًا وكأنني أشرح لطفل صغير منهج دراسة جامعية بلغة مبسطة ليستوعبَها عقله الصغير؛ فأشار إلي بالصمت قائلا: «وكذلك ندخل نحن السجن على يديك بدون استئناف»، ثم نظر للرجال من حوله؛ فضحك وكأنه أشار لهم بأن يُشاركوه جميعًا الضحك؛ فضحك الجميع معه، وأنا في حالة استغراب لضحكاتهم هذه؛ فليس في حديثي ولا فى الوضع القائم نفسه أي مجال يستدعي الضحك، ثم توقف الشاب عن الضحك مرة واحدة؛ فصمت الجميع معه أيضا ثم بادرني قائلًا: «المطلوب منك ألا تتحدثي مع أي كائن كان بمثل هذه المهاترات التي تسردينها عن أسباب غرق تلك السفينة ولا حتى مع نفسك، هل تستطيعين ذلك أم لا»؟

قلت متسائلة بجرأة أحسد عليها: «وكيف لا أتحدث عنها وأنا مَن عاصرتها وفقدت فيها كل عائلتي»؟

قاطعني بحدة: «هذا ما أريده منك بالضبط، ألا تتحدثي مع أي شخص عن السفينة، ومقابل هذا أتركك تعيشي حياتك بشروطي طبعًا؛ فليست بالحياة الكاملة؛ لأن حياتك الآن أصبحت ملكي أنا فلتعيشيها كما أهوى أنا»

ثم أشار إليَّ مهددًا: «عرضي عزيزتي كالتالي، ترفضيه؛ آمرُ رجالي فورًا بقَذفك من تلك السفينة إلى الماء من جديد، وسيتأكدُون تمام التأكد أنك قد التحقتِ بعائلتك، وصدقيني هم بالفعل رجال مهرة في هذا الشأن؛ فقد اختبرتهم منذ قليل فيمن لم يحالفهم الحظ قبلك في قبول عرضي»

مرت في جسد چاسمين قشعريرة، وانتفض قلبها خوفًا من تهديد هذا الشاب، ولكنها حاولت أن تبدو متماسكة، ولكن صوتها خرج من بين شفتيها رغمًا عنها خائفًا وهى تسأله: «إذًا أخبرني عن العرض المقدم لي؛ حتى أستطيع أن أفاضل بينهُ وأختار ما يصلح لي»

هدأ قليلًا، ثم قال ببرود أعصاب: «عزيزتي، لك أن تختاري بين العيش في السعودية أو مصر على أنك فتاة ليس لها هوية، مدعية فقدانك للذاكرة مثلا، ومقابل هذا سأوفر لك هوية جديدة، وسكنًا تأوين له، وعملًا بإحدى شركاتي لتكُوني تحت ناظري دائما،

وقليلًا من النقود تساعدك على الحياة الكريمة، وأنا أعدك أنك ستكونين بأمان ما دمت حافظة للعهد الذي بيننا، ولم تتصلي بأحدٍ من أهلك أبدًا، وألا تتصلي بأي شخص تعرفيه لحين إشعار آخر مني، وسأكون رحيمًا بك ولن أقول مدى الحياة، ولكن لحين تعود الأمور إلى نصابها وحينها سأعيد لك هويتك القديمة وتستعيدي حياتك القديمة، ولن أتعرض لك بعدها أبدًا، هذا هو الخيار الأول الذي أتمنى أن تتقبلِيه لأني أكره أن يكون الخيار الثاني بديلا لك؛ فأنت لا تستحقين، فما زالت الحياة أمامك بحلوها ومرها؛ وخيارُك الثاني هو فقدانك لتلك الحياة، بأن تقابلي أهلك في أعماق هذا البحر الغادر، الخياران أمامك وليس لدي متسع من الوقت؛ فما هي إجابتك»؟

زاحمني الصمت وبداخل عقلي صراع لاتخاذ القرار، وتعالى صدى صوت أحمد بداخل عقلي: «اقبلى يا چاسمين ما يطلبه منك، نحن لسنا مخيرين، نحن في حكم المضطرين»، وأتاني صوت الرجل الذي قادني إلى هنا وهو يقول: «يا ابنتي، هؤلاء قوم ملاعين، ليست في قلوبهم رحمة، وافقي على ما يطلبونه منك حتى تحافظي على حياتك»، كل هذا وأنا صامتة أفكر، ثم اهتديت إلى مراوغة

ربما تكون حلًا وسطًا؛ فقلت متسائلة: «لمَ لا أستطيع أن أذهب إلى أهلي وأعدك على ألا أفتح فمي أبدًا وأقول أي شيء؛ فأنت ترى أني فتاة ولا أستطيع أن أعيش بدون حماية من الأهل والأقارب؛ فكيف سأعيش وسط أناس لا أعرفهم ولا تربطني بهم أي صلة؟ شهامة منك اجعلني أذهب إلى أقاربي لأعيش معهم، ووعد مني لن أفتح فمي بكلمة تخص سفينتك تلك أبدًا»

وقف الشاب ثم وضع هاتفه المحمول على المنضدة، وتركه عليها وهو يقول لي: «للأسف هذا العرض غير قابل للتفاوض أو التبديل، وهو نهائي، وإذا كانت على الحماية سأوفرُها لك؛ فهو أمر مؤقت وبعدها ستعودين إلى حياتك كما أخبرتك من جديد»

اتجه نحوي ووقف بجانبي وما زالت تلك النظرة الشهوانية في عينيه تتأملني وتتمنى افتراسي، يا له من قذر! فهو أول شخص أخشاه؛ فكيف سيوفر لي هو الحماية؟ إنه كاذبٌ مخادعٌ مغرورٌ أفَوِّضُ الأمرَ فيهِ إلى اللهِ.

تسائلتُ من جديد: «وكيف تثق أن أوافق على عرضك هذا ولا أهرب منك بعدها إلى أهلي»؟

انحنى بجسده تجاهي قليلًا، واقترب من وجهي وهو ينظر في عيني وقال: «لا تقلقي من هذا الشأن؛ فأنا أعرف جيدًا كيف أضمن

ولائك لي؛ فأنتِ لك استثناء خاصًا يليق بأنوثتك وجمالك؛ فهل اتخذت قرارك النهائي مصر أم السعودية، أم...»؟

وأشار بحركة مسرحية باتجاه البحر بصمت ثم أكمل جملته بلقب: «عزيزتي»... «فلتكن مصر» قالت ذلك على الفور، وبدون تردد تابعتُ: «حسنًا؛ فهي وطني مهما حدث»

وقف معتدلًا ثم قال لها: «أحسنتِ الاختيار يا عزيزتي»، ثم استدار خلف ظهري، ووضع يديه على كتفي متحسسًا عنقي من تحت حجابي براحة يديه؛ مما جعلني أنتفض وأقوم من على مقعدي سريعًا بخوف؛ فأجلسني عنوة وقال لي: «التزمي الهدوء كي تثبتي لي ولائك يا... قلت لي ما اسمك»؟

ثم بحركة تمثيلية أيضًا ادّعى التذكر قائلًا: «آه يا چاسمين»

قلت والدموع تنساب من عيني: «من فضلك اتركني ولا تلمسني، ودعني أنصرف من هنا»

سألني وهو ما زال يتحسس عنقي، واقترب بفمه من أذني وقال لي هامسًا: «لم تخبريني بعد أأنتِ عذراء أم سبق لك الزواج»؟

حاولت أن أنهض، ولكنه منعني من جديد؛ فلم أقاوم فقد كانت مجهدة بكل ما تحمله الكلمة من معنى؛ فقلت بخوف: «أرجوك

اتركني فليس لك شأن بهذا، وما دخلك أنت بمعرفة إن كنت متزوجة أم لا»؟

قال لي: «أنت على حق، وما دخلي كونك عذراء أم لا؛ فهذا لن يفرق معي كثيرًا في أخذ كل الضمانات اللازمة لولائك»

ابتعد عني ثم أشار إلى رجاله وأمرهم بالانصراف قائلًا: «اغلقوا هذا الباب اللعين خلفكم، ولا يدخل عليَّ أحد؛ فأنا سأوقع على بعض الضمانات، فلا أريد إزعاجًا من حولي»

قمت على الفور وقدمي ترتعش تحت ثقل جسدي؛ فهي لا تكاد تحملني من فيض إرهاق الأيام الماضية التي مررت بها؛ من تصلب لعضلات الساق، ومن كثرة السباحة في الماء البارد، حاولت الهرب والوصول إلى باب الغرفة، فقد فهمت ما يشير إليه هذا اللعين ودموعي تنهمر؛ فأمسك بي أحد رجاله وأعادني إلى مقعدي بالقوة، وصوَّب نحوي سلاحه وقال لي: «لا تُغضبي الباشا منك؛ فلن تتحملي عواقب غضبه»

بصقت على وجهه وأنا أرتعش وأقول له: «أين نخوتك أيها الكلب القذر ألا تفهم ما يريده أيها الديوث»؟

مسح وجهه ونظر إلى سيده، وقال له: «هل أذهب وأتركها أم أتعامل معها بطريقتي أنا يا فريد باشا»؟

أشار له سيده بالانصراف، وقال له: «لا عليك؛ فلتغلق خلفك أنت الباب فقط، وأنا سأتعامل معها بطريقتي المهذبة»

وانصرف الرجل وأغلق خلفه الباب، فقمت مجددًا من على مقعدي بكل ضعف، واتجهت نحو هذا المدعو فريد، وركعت على قدميه أقبلهما طالبة منه أن يرحم ضعفي، قائلة: «أرجوك اعتبرني أختًا لك، أو أي شيء؛ فأنا عذراء ومحافظة على ديني وإسلامي، أرجوك لا تغضب الله بلحظة شيطانية؛ فالموت أهون عليَّ من هذا...أرجوك يا فريد باشا، ثم تذكرت شيئًا على الفور: «لقد راجعت نفسي ولا أريد العيش لا في مصر ولا السعودية، أرجوك لقد اخترت أن أموت في البحر؛ فلتأمر رجالك أن يقذفوني في البحر من جديد ويتأكدوا من غرقي، بالله عليك لا تضيعني أمام ربي، خاف الله ودعني أقبِّل قدميك، واتركني أقابل ربي وأنا ما زلت عذراء لعله يعفو عني»

وهل لمثل هؤلاء البشر قلوبًا تخشع أو تتذكر وقوفها أمام الله، إنهم أقذر من أن تتحرك في قلوبهم الرحمة، إن قلوبهم صلدة كما الحجر، بل إن الحجر ذاته ليخشع من ذكر الله تعالى، أما هؤلاء فهم عبيد للشهوات.

ابتعد عني وتوجه نحو هاتفه المحمول وفتح الكاميرا به، ثم أسنده على المنضدة من جديد في وضع رأسي وقال لي وكأنني لم

أخاطبه ولم تتحرك فيه أي عاطفة ولا شفقة لضعفي؛ فلقد تملكت منه شهوته الحيوانية فقط وقال لي: «لك هذا عن طيب خاطر، ولكني لن أتركك في البحر لتغرقي من قبل أن أتذوق مفاتنك أيضًا؛ فكيف أترك كل هذه الأنوثة الطاغية والجمال الفتَّان تفنى أمام عيني بدون أن أتذوق منها شهدها، أعتقد أن هذا يكون دربًا من الجنون سيدتي»، ثم قال بهدوء شديد وهو يتوجه نحوي: «إن ما سأفعله الآن هو فقط مجرد ضمان لولائك لي، إن حاولت أن تغدري بي؛ فحين ذاك أنشر مقطع اغتصابك هذا على مواقع الإنترنت، أما إن كنت مطيعة فلن أحتاج إلى هذا الإجراء ولن يراه أي مخلوق سواي، صدقيني سيكون كل شئ على مايرام، ولن يضرك شيئا؛ فهذا أمر سهل على كل النساء، ولا داعي أن تخشيه؛ فأنت حتما ستفعليه سواء كان معي الآن أو مع أي رجل غيري فيما بعد، إن الخوف منه فقط في أول مرة، بعدها تصبح الأمور سهلة وبسيطة وستعتادين عليها، وربما أيضا تطلبينها بنفسك، فمن يعلم فربما يعجبك أدائي فلا تخافي مني؛ فأنا رجل أوفي بوعودي دائمًا»

كان قد اقترب مني وهي منهارة من البكاء، وجسدي الضعيف بات لا يقوى على المراوغة والهروب؛ فأنا منهكة مذ كنت في البحر

أسارِع الموت والبرد والجوع والعطش؛ كل هذا جعل جهدي قليل، فلم أقوَ على أن أدفعه بعيدًا عني سوى بضعة من السنتيمترات؛ فاستسلمت لذراعيه القوية وهي تجبرني على الوقوف، وحين استقام له جسدي أمامه ضمني إلى صدره ضمة كادت أن تمزق ضلوعي، وأسرع ينزِع عني حجابي؛ فانفرط شعري الحريري الطويل على ظهري وجيوبي؛ فراحت كفه اليمنى تمسح على شعري حتى وصل إلى نهايته، فحملني بيديه إلى أعلى ووضعني على المنضدة وقد خارت قواي واستسلمت لمصيري ولعبثِ يديه التي لم تترك أي جزء من جسدي إلا ونهشته وقتلت فيه البراءة والطهر.

آه لو يعلم المغتصب بشاعة جرمه على نفسية ضحيته؛ من قهر وهوان وذل وكراهية الأنثى لجسدها بعد ذلك، والله الذي لا إله إلا هو لو علم المغتصب جرم ذنبه لقتل نفسه بأعنف طرق الموت؛ من هول ما يتخيله فقط، فما بالكم بشعور الضحية نفسها؟

آه من قسوة هذا الإحساس الرهيب بالألم.

أعلم أنكم لن تتخيلوه أبدًا مهما بذلتم من جهد؛ فلا يشعر بالآلام إلا من تجرع مُرَّها، ولا يشعر بالقهر والذل والهوان إلا من قُتلت براءته؛ فهل سألتم الملح يومًا عن إحساسه بمقدار العذاب الذى يتسببه حينما يمس جسدًا مثخنًا بالجراح؟

هل مرّ بخلدِكم ذلك الشعور؟ وما مدى قسوة الألم الناتج عن تلك اللمسات الحانية منه برغم لونه الأبيض ونقاء حُبيباته؟ إنه يقسو بلا رحمة ولا مبالاة لتأنيب ضمير.

رفقًا بي أيها الملح رجاءً؛ فجراحي أصبحت دامية ولا تتحمل هذا الحنان الزائف منك بجسدي، ولن يشعر بأنات عذابي سواي؛ فلترحم جسدًا وقلبًا ضلَّا في أغوار هذه الحياة.

لا أظنكم ستشعرون، وأدعوا الله ألا تذوقوه أبدًا؛ فاللهم استر نسائنا ونساء جميع المؤمنين، وكل من قال آمين.. آمين.

وأظلمت الدنيا من حولي مرة أخرى، وفقدت الوعي من جديد ومن قبل ذلك فقدت أسمى ما تملكه الحرة المحصنة وتناثرت دماء العفة والطهارة على ذلك الجسد الملعون.

الفصل الثالث عشر
حديثٌ مع النفسِ

نظرت چاسمين إلى عادل الذي لمحت على وجهه ملامح متغيرة، فقد اختفت من على شفتيه ابتسامته المعهودة عندما وصلت بقصتها إلى تلك النقطة.

فقالت له بحياءٍ: «أنا آسفة يا دكتور عادل، لقد صدمتك بحقيقتي التي أخجل كثيرًا منها، ولكن هذا ما أنا عليه ولا أستطيع أن أخفي عليك ما حدث لي؛ فأنا أعلم جيدًا أن ما تخيلته عني صار وهمًا ولا أستحقه»، ثم طأطأت برأسها إلى أرض الغرفة وقالت: «تلك چاسمين التي تراها أمام عينيك الآن دون أي خديعة ولا أي رتوش».

اعتدل عادل على مقعده أمام سريرها، ثم بحركة عفوية أمسك بنظارته الطبية وظل يحركها على عينيه، وكأنه يعدلها ووجهه كله يكاد الشرر يتساقط منه ليحرقَ كل من حوله، ولكنه يتصنع الهدوء.

وبكلمات مرتبكة متلعثمة قال: «أعلم أنكِ لم تخدعيني ياچاسمين، ولكن صراحةً لم أتوقع أن تكوني قد مررت بهكذا مأساة، وأنكِ قد قاسيتِ كل هذا العذاب والهوان من كلب حقير ليس له قلب ولا دين، ولكن حقيقة ما يثير جنونى لماذا أنتِ

دون الجميع؟ فلا أعتقد أنه فعل ذلك الجرم مع كل الناجين رجالًا ونساءً! هناك حلقة مفقودة يا چاسمين».

«معك كل الحق فيما قلته يا دكتور، ولكن أقسم لك أن ما قلته لك توًّا هو ضريبة الجمال الذي أصبحت ليلًا ونهارًا أكرهه؛ فقد كرهت أنوثتي وفتنتي التي يراها الناس من حولي، لقد تحولت حياتي كلها إلى جحيم يطاردني وكابوس لا أستطيع أن أستيقظ منه، لقد كرهت كل شيء يميزني كأنثى. وبكل كراهيتي تلك لذاتي كان انقامي أشد قسوة وأخرج من داخلي ائنًا بغيضًا لا أعرفه، ولم أتصوره أبدًا يعيش معي كل تلك السنوات من عمري، ولم أعثر عليه إلا يوم أن أخذت حقي مِن مَن ظلمني، بعد ثلاث سنوات عانيتها وأنا أترقب الفرصة وأخطط لها، وحتى يوم أن انتقمت لنفسي لم أستطع أن أسعد بانتقامي هذا لبضع ساعات؛ فقد وجدتني أنت بنفسك بين حطام تلك السيارة وقتها، وكأن كل شيء من حولي يعاند حتى فرحتي بهذا الانتقام الذي جعلني الآن أقصُّ عليك فيه قصتي بدون خوف من أن يفضحني فيه هذا الحقير المدعو فريد».

أخيرًا تحدث عادل الذي كان يستمع بكل حواسه لحديثها متسائلًا:

«رائع، وأخيرًا قلتِ شيئًا سيطفئ نار الثأر بداخلنا؛ فأنا معكِ قلبًا وقالبًا مع أي ثأر اتخذتيه مع ذلك الشخص»، ثم كرر كلامه لها ليؤكد لها مباركته لردة فعلها أيًّا كانت: «أنا معكِ صدقيني، أيًا كان ما فعلتِه معه فهو يستحق العقاب.

هل تعلمين، إن كان ما ستسردينه عليّ من عقاب لا يشفي غليلي، سأزيده من العقاب عقابًا من عندي؛ فأنا أكره كل من لا يخاف الله ويتجبر على خلقه».

تهلل وجه چاسمين قليلًا، ونظرت لعادل وبكلامها راحة بال مما قاله لها توًا وقالت على الفور: «أحقًّا توافقني على أني انتقمت لنفسي من هذا القذر وبدون أن تعلم كيف ثأرت منه؟»

عادل بدون أي تردد: «لا يهمني كيف ثأرتِ منه، الأهم هو أن تشعري أنكِ قد رددتِ جزءًا من حقكِ الذي سلبه منكِ».

نظر عادل إلى ساعته التي قاربت من الرابعة عصرًا، ثم قام من جلسته وقد عادت ابتسامته المعهودة على وجهه من جديد وخاطبها بلطف:

«چاسمين، حان الآن وقت غدائك والراحة، ولا بد أن أنصرف الآن؛ لأستعدَ للذهاب إلى عيادتي، وأريد منكِ أن تستعدي أنتِ أيضًا، فسوف ننزع عن قدمك تلك الجبيرة الثقيلة؛ لتمشي بحرية أكثر إن شاء الله».

قالت چاسمين:

–وماذا عن باقي قصتي؟

–لن أترك أهم جزء بها صدقيني، ولكن حان الوقت للراحة، وسنكملها في الغد.

قالها عادل وهو ينصرف نحو باب الغرفة، وعند فتحه لباب الغرفة استدار إليها من جديد وفي عينيه نظرة هو لا يعلمها إن كانت عطفًا وشفقة لحالها، أم أنها حزنًا عليها وعلى ما عانته من آلام؟ ثم قال لها: «چاسمين، أنتِ ضحية لرجل بلا قلب ولا دين، وليس لكِ أيّ ذنب فيما حدث؛

فلا تحزني رجاءً، وكفاكِ من الدموعِ، فقد اكتفيتِ منها واكتويتِ، فلترمي بكل أحزانك وراء ظهرك».

ثم خرج من الباب وانصرف دون أن ينتظر منها تعقيبًا على كلماته.

نظرت چاسمين نحو الباب بعد أن أغلقه خلفه، وقالت بصوت هامس تخاطب نفسها:

«لا عليك يا عادل، فلن أحزن؛ فلقد اكتفيت منه وجفت مقلتي من الدموعِ لعشرات السنين من عمري القادم، يا ليتك ظهرت لي من قبل كل تلك السنوات السيئة من عمري»

استلقت على سريرها ورفعت نظرها إلى سقف الحجرة وقالت: «أنت لم تخلقي للحب يا چاسمين، لقد أخبرتك أن تتمهلي؛ فربما تتغير فكرته عنك»

آه كم أتمنى لو أعلم الآن ما هو حكمه الذي أصدره علي بعد أن أخبرته بحقيقة عذريتي؟

هل سيصدقني أم سأسقط من نظره وإن فعل فلن ألُومَه؛ فهو أيًّا كان رجل شرقي ولن يتحمل أخطاء الشرف إنه العار يا چاسمين ولن يتحمله أحدًا سواكِ.

ما أن أغلق عادل الباب خلفه وانصرف من غرفة چاسمين حتى هرول مسرعًا إلى خارج المستشفى، واتَّجه من فوره إلى سيارته القابعة في أحد أركان المستشفى؛ فتوقف بجانبها وأخرج محموله، واتصل به، وما أن جاءه صوت عارف من الطرف الآخر قال متسائلًا: «أين أنت يا عم عارف»؟ لحظة صمت يستمع ثم يردد: «من فضلك أَحضر لي مفاتيح السيارة أنا بجوارها أنتظرك»، ثم أنهى الإتصال وانتظر قليلًا إلى أن جاءه عم عارف مسرعا يركض نحوه متسائلًا: «لمَ لمْ تخبرني قبلها يا دكتور لأنتظرك»؟

قابله عادل وهو يمد يديه إليه ليأخذ منه المفاتيح وهو يقول له: «لا عليك عم عارف، أَعطني المفاتيح، سأذهب بالسيارة وحدي؛

فلتعود إلى بيتك وأسرتك إن شئت، فلن أعود اليوم للمستشفى»

استغرب عم عارف؛ فهذه أول مرة يقود عادل بها السيارة منذ عمل معه، ولكنه أعطاه المفاتيح قائلا له: «ها هي، فهل أعود غدًا في الصباح إلى المستشفى أم أتوجه إلى بيتك وأرافقك إلى هنا»؟

فتح عادل باب السيارة ودلف إليها، ثم أدارها قائلا: «فلتأتِ وقتما شئت إلى هنا، فأنا سأحضر بمفردي غدا»، ثم أغلق باب السيارة، وانطلق دون أن ينتظر ردًا من عارف الذي ظهرت عليه علامات التعجب من أسلوب عادل الجاف له.

انطلق عادل هائمًا بالسيارة لا يدري إلى أين سيذهب؛ فكلمات چاسمين تتردد في عقله تكاد تفجر رأسه من مرارة قسوتها لا يشعر بالألم إلا من تذوقه، ولا يشعر بالذل والهوان إلا من قتلَت براءته؛ فهل يستطيع الملح أن يشعر بمقدار العذاب الذي يسببه عند ملامسته جسدًا ملئته الجروح بأكمله؟ لا أظن.

طوال الطريق، وتلك الكلمات تتردد في أذنيه تكاد تصيبه بالجنون من كثرة ما ترددت بداخله حتى وصل أخيرًا إلى ضفاف نهر النيل؛ فانحرف بالسيارة نحو كافيه كان دائمًا ما يلجأ إليه في أوقات فراغه أو عندما يريد أن يتناول طعامًا في الهواء الطلق.

ركن سيارته وهبط منها واتجه إلى داخل الكافيه، واختار مائدة

مقابلة لمياه النهر، ويا له من منظر ساحر خلابٍ والشمس في رمقها الأخير من النهار تلقي بأشعتها الذهبية الحمراء، وتتراقص على سفحة الماء الخضراء، فتتعانقان سويًا مخلفة لونًا برونزيًا خلابًا تحفّهما من على جانبي الشاطئ؛ الأشجار العالية المورقة، والأزهار تتناثر بجميع ألوانها من حول كل هذا المنظر البديع؛ لتزيد المنظر إبداعًا.

جلس عادل متأملا هذا المنظر، ووجه چاسمين يتهادى أمام عينيه وسط كل هذا الجمال فتكتمل اللوحة جمالًا بوجهها الصبوح، يراها تارة تنظر إليه بعينيها العسليتين وعلى شفتيها ابتسامتها الرقيقة؛ فيتبسم، وتارة أخرى يراها حزينة ودموعها على وجنتيها؛ فيعود إلى واقعها المرير من جديد، وكلماتها التي تتردد في ذهنه، ثم تردد في عقله صوته هو نفسه يحدثه كشخص أخر سائلًا إياه بصوت عميق ليدور بينه وبين نفسه هذا الحوار:

– ماذا أنت فاعل الآن يا عادل ؟

– أدري حقيقةً ماذا أفعل!

– أحببتها ؟

– أعتقد أن هذا ما أنا فيه، فأنت تعلم أني لم أعرف معنى الحب من قبل.

– إذًا فلتسامحها وتغفر لها.

–أسامحها على ماذا؟ وأغفر لها أي جرم؟

–أو لا تعلم جرمها؟

–أعلم، ولكني لا أعلم كيف أسامحها مع إنها هي الضحية.

–أنت لا تحبها إذًا؟

–رفقا بي، فأنا رجل شرقي ويصعب على أمثالي أن يتأقلموا مع هذه الأمور.

–لقد احترت في أمرك يا صديقي، أتحبها فتغفر لها أم لا فتدعها وشأنها؟

–أحبها وأعلم أنها لم ترتكب أي خطيئة برضاها؟ فكيف أواجه نفسي إن تخليت عنها؟ والأصعب منه كيف أواجه نفسي وكأنه لم يحدث معها أي شيء؟ تلك هي المشكلة.

–إذًا أرى أن تتأكد من قصتها، فلعلها تكون كاذبة وتدعي البراءة.

–قلبي يخبرني أنها صادقة، فمن ماذا أتأكد؟ ولكن أتعلم أنك على حق في هذا لعلّي لو علمت أنها كاذبة أرتاح من هذا الأمر كله.

–وإذا كانت بالفعل بريئة، هل ستعفو عما مضى؟

– لا أظنني لا أعفو، بل أظن سأعفو، نعم سأعفو؛ فهي لا

تستحق أن أكون أنا والزمن عليها، ولن أنسى بأني رأيتها بعد دعائي بأن يرزقني زوجة صالحة، وأن يرزقني الأولاد؛ لذلك أنا على يقين أنها ضحية بالفعل، وإنها لم تختلق تلك القصة فلا أظن بأن الله سيرسل لي سوى شيء أستحقه، وأنا واثق من اختيار الله لي.

–وبما إنك على هذا اليقين فلما ستبحث عن براءتها؟

–إن خليل الله إبراهيم – عليه السلام– سأل ربه يوما قائلًا: «بسم الله الرحمن الرحيم وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءًا ثم ادعهن يأتينك سعيًا واعلم أن الله عزيز حكيم»

بلى ولكن ليطمئن قلبي..

بلى ولكن ليطمئن قلبي..

قاطعه لحظات شروده تلك فتاة ترتدي زي الكافية الجيب السوداء، وقميص أبيض، ومن فوقه صديري قرمزي اللون، علت الابتسامة على شفتيها وبكل ترحيب قالت: «دكتور عادل أهلا ومرحبا بك، افتقدناك الفترة الماضية، حمدًا لله على السلامة»، أفاق من شروده على ترحيبها وقال:

«الله يسلمك أخت نهال، كيف أحوالك وكيف أحوال الأستاذ خالد والأبناء»؟ قالت له نهال والامتنان في كلماتها: «الحمد لله، نحن في فضل ونعمة من الله، ولولا وجودك بجوار خالد في إجراء تلك العملية ما كتب له الشفاء؛ فجزاك الله خيرًا عنا جميعًا»

أشار لها عادل بحياء وتواضع: «الحمد والفضل كله يعود إلى الله، وما أنا إلا سبب فقط، أبلغي أسرتك الكريمة مني السلام، حفظهم الله»

ردت نهال بابتسامة مهذبة وقالت: «سلمك الله يا دكتور»

ثم أتبعت كلماتها بالكلمات المعهودة لزبائن المقهى وهي تناوله قائمة الطعام والشراب: «ماذا أحضر لك فلدينا اليوم طعامٌ سينال رضاك»؟

تهادى إلى مسامعه صوت الأذان من أحد مكبرات الصوت قريبا منه، فقال لها وهو يقف: «من فضلك، اطلبي نيابَة عني أي طعام على ذوقك الشخصي حتى أذهب لصلاة المغرب وأعود؛ فأنا أثق في ذوقك كثيرًا، ثم تذكر شيئًا فبادرها سائلا: هل أستطيع أن أطلب منك خدمة أخرى»؟

قالت على الفور:

–بكل تأكيد ماذا أستطيع أن أقدم لك؟

–أين خالد الآن؟

–إنه سيمر عليَّ بعد ساعة من الآن لنعود إلى البيت!

تهللت أساريره وقال: «حسنًا هذا عظيم، سأخبرك إذًا عندما أعود من المسجد»، ثم غادرها وابتسامته المهذبة على وجهه.

الفصل الرابع عشر
اعتراف

في عصر اليوم التالي تخرج چاسمين من حجرة العظام مستندة على عكازها، وقد نزعت الجبيرة الثقيلة من على ساقها، ووضع بدلا منها رباطًا ضاغطًا، وتخرج من خلفها سوسن دافعة أمامها كرسيًا ذا عجلات؛ فتقول لها على الفور:

–لمَ العجلة في المشي؟ اجلسي على ذلك الكرسي لنصل إلى غرفة العلاج الطبيعي فهي بعيدة عن هنا.

– لا لا، أريد أن أمشي عليها؛ فهي لا تؤلمني، فلقد أخبرني الطبيب بأنها لمْ تكن كسرًا، بل شرخًا، وسأمشي سريعًا بدون ألم.

– ألم يظهر بعد الدكتور عادل ؟

–هو هكذا دائما يختفي فجأة ويظهر من جديد، فربما لديه تسجيل في أحد القنوات الفضائية أو ما شابه ذلك، سيعود سيعود فلا تقلقي.

ثم قالت سوسن لها بتدخل لا يعنيها كعادة الكثير من النساء، وخصوصًا إذا ما كانت أمثال سوسن، فضوليات ويضعن أنوفهن فيما لا يعنيهن:

«أخبريني يا چاسمين، لمَ لمْ يأتِ إليك أي أحد من أفراد عائلتك لزيارتك منذ حضرتِ إلى هنا» ؟

ردت چاسمين بصوت حزين: «للأسف يا سوسن ليس لدي عائلة، فقد ماتوا في حادث منذ ثلاث سنوات»، ثم صمتت وأكملت في مشيها عبر طرقات المستشفى، فقالت لها سوسن مواساة لها: «لا حول ولا قوة إلا بالله، رزقك الله الصبر»

ثم بادرت چاسمين بكلمات: «هل تعلمي أن الدكتور عادل على خلاف مع الدكتور حفني بسببك»

أتاها صوت الدكتور عادل من خلفها حادًا قائلًا: «وهل تعلمي أنك كلامك فيما لا يعنيكِ سيتسبب في فصلك من العمل» ؟

سوسن وبحركة من يديها تفعلها أغلب النساء عادة، مع شهقة من فمها بأن تضرب على صدرها علامة الخوف ملتفتة إلى عادل الذي كان متجها نحوهما بثبات ببدلته الأنيقة وممسكًا بيديه حقائب جلدية؛ فقالت له سوسن بخوف من كلماته لها: «أنا آسفة لا أقصد أن أتدخل فيما لا يعنيني، أنا فقط أحاول أن أجد مجالًا للحديث معها حتى نصل إلى غرفة العلاج الطبيعي، سامحني لم أقصدْ». قاطعها عادل ومد لها بالحقائب الجلدية، وقال لها بصوت

غاضب: «انتهينا، خذي تلك الحقائب، واذهبي بها إلى غرفة أستاذة چاسمين، وضعيها هناك وانصرفي، ولو رأيتك أمامي اليوم لن أتنازل عن فصلك من العمل»

أخذت منه الحقائب بخوف ووضعتها على الكرسى المتحرك، وهرولت بها مسرعة تختفي من أمامه.

ضحك عادل على تصرفها هذا، والتفت إلى چاسمين التي كانت تنظر إليه تتأمله بكل اشتياق لرؤيته من جديد؛ فهي لم ترَه منذ أمس، فلقد اعتادت وجوده بجانبها منذ أن أفاقت من غيبوبتها؛ فخاطبها على الفور متسائلًا: «ماذا بك يا چاسمين لم تنظرين إليّ هكذا؟ هل افتقدتِ وجودي أم بماذا أسمّي تلك النظرات؟ من فضلك لا تنظرين إلي بتلك العينين العسليتين؛ فأنا لا أستطيع مقاومة سحرهما»

واتسعت شفتاه عن ابتسامة أظهرت صفي أسنانه البيضاء.

بادرته متسائلة: «بك شيء مختلف اليوم يا دكتور عادل، وأنا أيضا أشعر بشيء مختلف لا أعلمه فعلا، افتقدتك؛ فدائما ما أجدك أمامي».

أشار إليها مقاطعًا إياها قائلًا: «حمدًا لله على سلامتك، دعينا ننتهي من جلسة العلاج الطبيعي الآن، وسنتحدث كثيرًا كثيرًا بعدها،

ولكن ليس في المستشفى هنا، بل سنتحدث خارجها إن سمحتِ لي أن أصطحبك بنزهة خارجها، فهل تسمح لي الياسمينه بهذا الشرف أم لا»؟

هزت رأسها بعدم فهم كلماته، وتبسمت رغمًا عنها وكأنها لا تصدق ما تسمعه منه، وقالت: «ماذا تقصد لا أفهم، هل تقصد نخرج معًا»؟

قاطعها من جديد: «ننتهي أولًا من جلسة العلاج الطبيعي الآن، ثم أشرح لك كل شيء، هيا فلا نريد التأخير على دكتور مازن؛ فهو عصبي جدًا ولا يحب أن يتأخر عليه مرضاه وإلا طردنا أنا وأنت من المستشفى كلها»، ثم ضحك ضحكة عالية قليلًا وأعانها على المضي أمامه؛ فسارت معه وهي لا تصدق ما سمعته منه الآن، ولكنها سارت وفي عقلها تصارعت الكثير من الأفكار والإحتمالات، وتسارعت بداخل صدرها نبضات قلبها المتلاحقة حتى وصلا إلى غرفة العلاج الطبيعي وطرقا الباب ثم دخلا إلى حيث ستتلقى أولى جلساتها.

بعد مرور ساعة دخلت چاسمين إلى غرفتها ومن خلفها دخل عادل ثم قال لها بعد أن دلفت إلى الحجرة: «لقد بذلت مجهودًا رائعًا ستتعافين أسرع مما توقعنا، إليك الآن ما عليك عمله»، وأشار

إلى الحقائب التي وضعتها سوسن على سريرها، وقال مبتسمًا: «في تلك الحقائب ملابس، أتمنى أن تكون ملائمة لك، عليك أن ترتديها، وسأعود إليك بعد قليل لنتناولَ الغداء في أحد المطاعم؛ فأنا أعلم أنك قد مللتِ من طعامِ هذه المستشفى»، ولم ينتظر منها أي تعقيب على ما قاله لها، وانصرف مغلقًا خلفه باب الغرفة، وتركها تحدق في الفراغِ من خلفه، ثم عادت إلى سريرها، وجلست عليه تفكر في تصرفات عادل الغريبة عليها.

وبعد لحظات من التفكير غلبها فضول الأنثى؛ فأمسكت بالحقائب لتتفحصَ محتوياتها، وأخرجت من أول حقيبة بدلة نسائية زرقاء، وقميصًا أبيض، وجيب أسود اللون، وبلوزة حمراء زاهية مرصعة ببعض الزهور المتداخلة.

كادت تجن من فرط السعادة وهي تضع على جسدها كل قطعه تخرجها من الحقيبة لترَها ملائمة لها أم لا، لقد شعرت أنها طفلة مدللة أبيها وقد أحضر لها ملابس العيد.

تركت الحقيبة الأولى بعد أن أفرغت جميع محتوياتها، وأمسكت بالحقيبة التالية؛ فأخرجت منها مجموعة من خمار الرأس، ومجموعة من الفساتين متنوعة الألوان، وكلما أخرجت قطعة كلما ازدادت

طفولتها وفرّغت محتويات تلك الحقيبة، فتناولت الحقيبة الثالثة ويا لها من حقيبة، فوجئت بمحتوياتها إنها آخر ما تتوقعه من رجل لا يعرفها جيدًا، نعم كما توقعتم أنتم، إنها ملابس النساء الخاصة، وما شابه من حمالات صدر وخلافه، يا له من إحراج، توردت وجنتيها بحمرة خجل رغمًا عنها من هذه الحقيبة؛ فتركتها وأمسكت بالحقيبة الأخيرة، وجدت بها حذاءً رياضيًا لإحدى الماركات المشهورة، وحذاء آخر ليس رياضيًا ولكن دون كعب، وبداخل الحقيبة حقيبة صغيرة وجدت بها بعض الجوارب والإكسسوارات لزوم الملابس، إنه لم ينسَ أيّ شيء، «كم أنت رائع يا عادل» ! قالتها وهي تحتضن كل الملابس وتضمها إلى قلبها بسعادة حقيقية، وقد تكون لأول مره تشعر بها منذ زمن طويل. اختارت الملابس التي سترتديها للخروجِ معه، وتوجهت بها نحو حمام الغرفة، وأغلقت الباب خلفها لتأخذ شاور ساخن.

في الخامسة عصرًا طرقت الباب إحدى الممرضات ودخلت إلى جاسمين غرفتها؛ لتخبرها بانتظار عادل لها في حديقة المستشفى، شكرتها وذهبت إلى حيث تلتقي بعادل لأول مرة بعيدًا عن رائحة الأدوية والمطهرات، وبدون ملابس المستشفى، ستقابله بملابس قد اشتراها بنفسه ليرَها بعينيه هو لا بعينيها هي.

وجدته يقف في منتصف الحديقة، ما أن اقتربت منه حتى أصدر لها صفيرًا ينم عن إعجابه الشديد بجمالها الذي يسلب العقول، دنا منها وتوقف أمامها مباشرًة وهو ينظر في عينيها يكاد أن يحتضنها؛ فتتورد وجنتاها خجلًا وتنظر إلى الأرض لتهرب من عينيه، ثم يحدثها بصوت هامس: «كم أنت رائعة حقا يا چاسمين، أنت أيقونة للجمال تتحرك على قدمين»؛ فتكاد دماء وجهها تقفز من بين وجنتيها من شدة الخجل، ثم ترفع إليه عينيها ولا تستطيع أن تثبتها على عينيه، وتتلعثم الكلمات من على شفتيها وهي تقول له: «إنها مبالغة منك يا دكتور، أشكرك على كل ما تفعله معي ومن أجلي، أنت...» يقاطعها واضعًا سبابته على شفتيها الورديتين، ثم وبابتسامة حانية يرجوها: «لا دكتور بعد اليوم، أنت چاسمين، وأنا عادل، عادل فقط»

فتهز رأسها علامة على القبول، فيشير لها على الطريق نحو سيارته، ويسير عن يمينها بجوار ذراعها غير المصاب، فإن أسوأ ما في هذه اللوحة الفنية المتحركة هو ذراعها الأيسر المتعلق على عنقها بحمالتِه الطبية الزرقاء.

سارت معه جنبًا إلى جنب نحو السيارة، فتح لها الباب وأشار بحركة مسرحية بإنحناءة منه لدخول السيارة، تنظر إلى شعر رأسه الأسود اللامع وتود لو أن تلمسه بأناملها لتداعبه، ولكن يمنعها

حياؤها فتكتفي بابتسامة وتركب في السيارة وهي صامتة، أغلق الباب وركب من الجهة الأخرى وانطلق إلى حيث كان يتناول طعامه بالأمس على ضفاف النيل.

نفس المنضدة، أمام النهر جلست تتأمل روعة المكان من حولها، ثم قالت لعادل الجالس أمامها: «هذا المكان رائع يا دكتور»

–ماذا أخبرتك؟ دكتور في المستشفى فقط، أنت هنا أميرة هذا المكان كله اتفقنا ؟

–نعم، وهو كذلك.

– هذا المكان التي وصفتيه أنت الآن بالرائع، كنت هنا بالأمس أراه مثلك تمامًا، لكنني الآن علمت أنه كان ينقصه شيئًا مهمًا للغاية لاكتمال روعته؛ أنت هذا الشيء الذي أكمل بهاء المكان، أشكرك لأنك وافقتِ على طلبي للحضور إلى هنا.

– أخشى عليك يا عادل أن تنجرف وراء شفقتك تلك وتعاطفك معي، ولا أتمنى استغلالك بتلك الطريقة وأن...

قاطعها للمرة الثانية، وبعتاب ظهر في كلماته:«شفقة؟ وتعاطف؟ واستغلال؟

هل هذه كلمات تصدر في مثل هذا المكان؟ وهل تعتقدين أنني صغيرًا مراهقًا لا يعلم شعوره تجاه ما يشعر به نحوك من أحاسيس»؟

–يا عادل أنت لا...

قاطعها هو للمرة الثالثة وبدون سابق إنذار أو تمهيد لكلماته خرجت من بين شفتيه بكل معناها وبكل إحساسها عفوية: «چاسميـن، أحبك، أهواك، وأعشق كل شيء فيك! نعم أحبك من قبل أن أراك، وأحببتك أكثر بعد رؤياك، أنت من أرسلها لي ربي»

تهادى إلى أسماعهم صوت أذان المغرب يعلو بالمكبرات؛ فرفع سبابته وأشار إلى صوت الأذان مستفسرًا: «أرأيت صدق كلماتي؟ ها هو الأذان يرفع تصديقًا لما أقول فالله أكبر ولله الحمد، أعشقك يا چاسميـن، وأتمنى ألا أكون أنا هو من يستغللك»

تعود بظهرها إلى الخلف لتستند على كرسيها وتنظر مباشرًة إلى عينيه، وتصدر تنهيدة من بين شفتيها، ثم تخبره: «لا بد أن أكمل لك قصتي قبل أن تنساق وراء قلبك وتفكر قبل أن تضع قلبك هذا بين يدي، فهذا أبسط حقوقك عليّ؛ فهل تؤجل قرارك هذا إلى ما بعد النهاية من سرد باقي حكايتي أولًا، وبعدها لك مطلق الحرية في اتخاذ القرار النهائي هل إتفقنا»؟

نظر إليها وعلامات الحيرة على وجهه وقال لها: «عزيزتي، لقد أفسدتِ لحظة اعترافي بحبك، يبدو أنني حتى في لحظات الاعتراف بالحب فاشل أيضا»، ثم يضحك من كل قلبه ويكمل كلامه: «يبدو أيضا أنك من نوع النساء التي تستمتع بالنكد فيا لي من رجل محظوظ، يوم أن أعشق أعشق نكدية»، ثم يضحك من كل قلبه كالأطفال؛ فتضحك چاسمين على ضحكته ويصمتان، ثم ينظران إلى بعضهما مرة أخرى؛ فينفجران من الضحك مرة أخرى وهو يقول: «أحبك رغم نكدك»

الفصل الخامس عشر
دعوة إلى الساحل

«مساء الخير يا چاسمين هانم»، قالتها نهال عاملة الكافيه وعلى شفتيها ابتسامة الترحيب، التفتت چاسمين إليها مندهشة من معرفة نهال لاسمها،

بتساؤل قالت چاسمين: «وهل تعرفينني»؟

– لم يحالفني الحظ بعد سيدتي، ولكني علمت اسمك من دكتورعادل بالأمس فقط، ولقد أخبرني وهو ذاهب لصلاة المغرب أن آتي إليك وأسألك عما تطلبينه من عشاء لكما لحين عودته.

– أشكرك أفضل أن أنتظره لحين عودته فنطلب سويًا، ولكن هل أخبرك عن اسمي أتمنى أن يكون قد ذكره بالخير؟

قالت لها نهال دون أن تختفي ابتسامتها بعد أن فهمت ما يدور بخلد چاسمين؛ فالأنثى هي الوحيدة التي تفهم الأنثى دون أن تسأل السؤال بطريقة مباشرة:

«لقد جاء دكتور عادل بالأمس لتناولَ عشائه وهو عميل لدينا هنا من قبل أن أعمل أنا هنا؛ فهو صديق شخصي لصاحب هذا المقهى، وبعد فترة احتاج زوجي لجراحة دقيقة بالقلب باهظة التكاليف؛

فتوسط صاحب العمل للدكتور عادل وجزاه الله خيرًا أجرى تلك الجراحة دون أي تكاليف، ومن وقتها وهو بمثابة فرد من عائلتنا أنا وزوجي وأولادي؛ فدكتور عادل يعيش وحيدًا بمصر، أما عائلته بالكامل فيقيمون بدولٍ أوروبية مختلفة ويحملون الجنسية، وبالأمس طلب من زوجي أن نذهب معه لشراء بعض الملابس لزوجته المستقبلية؛ لأنها مرَّت بحادث ولا تستطيع التحرُّك لشراء تلك الأغراض، وأن حبيبته تلك ستخرج من المستشفى اليوم لأول مرة منذ شهر، وهي بنفس حجمي، وأوصاني بأن أحضر لها كل ما يلزمها وقد كان؛ فهل وُفِّقت نهال مع من ستكون زوجة لأخيها»؟

قامت چاسمين من مقعدها والسعادة تغمر وجهها، واحتضنت نهال قائلة لها: «أكيد بالطبع وفِّقتِ؛ فها هي الملابس أرتديها، ولكَم هي رائعة حقًا وكأنني أنا اخترتها، فقد كنت أتساءل كيف عرف قياسي بهذه الدقة»؟

ثم صمتت لحظة وقالت لنهال: «أنا أيضا ليس لي أختٌ؛ فهل أطمع في أن تكوني أختًا لي»؟

ضمتها نهال إلى صدرها بحب، وربتت على ظهرها قائلة: «إنه لشرف لي أن تصبح لي أخت بهذا الجمال»

هنا جاء صوت عادل من خلفهما: «إنه ليسعدني أنني قد وفقت

في تعارفكن، وما أحزنني أنني كنت أعتقد أنني طلبت العشاء فور وصولي، فيا لي من رجل محظوظ حقًا؛ فأنا أتضور جوعًا، شكرًا لك نهال، وشكرا لك چاسمين»، ثم جلس وهو يضحك وأشار إلى نهال قائلًا لها: «فلترسلي لي صاحب هذا المكان لأشكو منك؛ فأنا أعتقد أنك قد أفشيتِ بسري لإحدى الزبائن ولن أسامحكَ»

ثم ضحك مرة أخرى؛ فقالت نهال على الفور: لا لم أفشِ أي سرٍ يا دكتور، فأنا لم أخبرها سوى أنك تحبها وأنك ستتزوجها فقط، أجاب عادل ضاحكًا: فقط الحمد لله أنها فقط ، فقد كنت أعتقد أنك أخبرتِها بشيء سامحتك يا نهال، فلتخبريني إذًا ماذا سنتناول اليوم من طعام؟

ثم أشار بيده لچاسمين التي ما زالت واقفة أمام نهال: «فلتجلسي يا عزيزتي ولا تصدقيها فيما قالته لك الآن؛ فهى لم تقل بعد شيئًا، إنها تنتظر الفرصة فقط لتخبركِ بحبي لك، وبأنني أريد الزواج منك، ولكن الحمد أنها لم تخبرك»

ثم ضحك وضحك الجميع معه.

–ماذا حدث لك يا عادل لقد آسرتكَ چاسمين حتى إنك ولأول مرة تضحك من أعماق قلبك هكذا، فمن الذى وهب الحياة لمن؟

أأنت من أنقذتها من الموت أم هي التي أعادت إليك حلو الحياة من جديد لقلبك؟ أم كلا منكما أعاد الحياة للآخر؟

أسئلة تطرح نفسها بداخل عقل كلا منهما.

في صباح اليوم التالي، قامت چاسمين من سرير غرفتها بالمستشفى بنشاط على غير العادة؛ فاليوم هو اليوم الأخير لها في تلك الغرفة، لقد أخبرها عادل بهذا الأمر عندما عادا من نزهتهم بالأمس، ولقد فاجئها بعرض آخر جديد لها، إنه يود أن يأخذ إجازة من عمله بالمستشفى ويذهب إلى ڤيلته بالساحل الشمالي، ويصطحبها معه هي ونهال وأسرتها؛ فلقد عرض الأمر على خالد ونهال وكانا في غاية السعادة عندما ألحَّ عليهما لمرافقته، فهو يفتقد هذاالجو الأسري؛ ولأن چاسمين تحتاج أيضا لصحبة آمنة.

اعترضت چاسمين في بادئ الأمر، لكنه أقنعها بأنها فرصة لها لفترة نقاهه بعيدة عن أجواء الأدوية والمطهرات، ولديها الحرية في العودة متى شاءت، وفرصة أخرى لسماع باقي قصتها؛ فوافقت بعد تفكير.

دخلت لتتوضأ وتصلي ركعتي الضحى، وما أن انتهت حتى شرعت في ارتداء ملابسها، وجمعت أغراضها فلم يتبقى على وصول عادل إلا ساعة أو ساعتين، وما أن انتهت من جمع جميع متعلقاتها، وقفت أمام النافذة تفكر بعمق في حب عادل لها؛ هل يستحق أن يرتبط

بفتاة مثلها؟ إنه رجل بكل ما تعنيه الكلمة من معانٍ، إنه من عائلة ذات شأن، طبيب، ومشهور، متدين، ويقدم يد المساعدة للجميع دون مقابل، أما عن مواصفاته الأخرى؛ فهو وسيم، رقيق، مهذب؛ فماذا ينقصه ليرتبطَ بفتاة ذات شأن تليق به، فتاة لديها عائلة يفتخر بها كما ستفتخر هي به، عذراء لم يمسسها رجل من قبله ولم تدنسْ حتى وإن كانت بدون إرادة منها؛ فما ذنبه هو ليتحمل خطيئة غيره؟

لا بد أن أختفي من حياته، أعلم أنه أول من دق له قلبك يا چاسمين ولكن عادل يستحق من هي أفضل منك، هذا هو جزاء الإحسان وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ انسحبي إن كنت تحبينه حقا.

إذًا لأنسحب؛ فهذا لمصلحته، أعلم أنه سيتألم قليلًا لكنه قوي الإيمان، وسوف يعود من جديد بعدها لحياته ونجاحه، سيكرمه الله بمن تستحق إنسانًا رائعًا مثله.

تحدث نفسها:

–هيا يا چاسمين، لنرحل يا عزيزتي بصمت، هيا قبل أن يأتي.

–لا ليس الآن من فضلك، إنه بحاجة لتلك الرحلة ليرتاح قليلًا من عمله ولغياب أسرته عنه طوال هذه المدة؛ فلنذهب معه إليها كرد جزء قليل جدًا للجميل الذي غمرنا به طوال الفترة الماضية،

ومن بعدها أعدك أن ننسحب بهدوء، هذا أقل ما يمكن أن نقدمه لهذا الرجل الشهم.

-وماذا عن خوفك من البحر هل ستحتملين مواجهة البحر من جديد؟

-سأحاول أن أواجه البحر، فماذا سيأخذ مني أكثر مما أخذه من قبل؟

طرقات على باب غرفتها؛ أخرجتها من تفكيرها العميق، أذنت للطارق بالدخول فدخل عادل بطلعته الواثقة الهادئة وعلى شفتيه علامته المميزة، نعم هي ابتسامته المعهودة التي ما أن تراها چاسمين حتى يذوب قلبها بالراحة والطمأنينة؛ فتبتسم له قائلة: «صباح الخير، لقد حضرت مبكرًا عن موعدك»

فرد عليها مشيرًا إلى ما بيديه:

«صباح النور على أجملِ وأرق ياسمينة»، وناولها حقيبة سفر، كان يجرّها بيديه خلفه، فانتبهت إليها وقالت:

-ما هذا يا عادل، لا تخبرني أنها لي؟

-ولم لا ؟ أين وضعت أغراضك؟ أفي حقائب بلاستيكية؟ ضعي أغراضك في تلك الحقيبة، والحقي بي سريعًا؛ لأني أتضور جوعًا

فلم أتناول الفطور بعد، فدعينا نتناوله قبل أن نذهب إلى خالد وأسرته فهم في انتظارنا.

ثم أودعها ابتسامته الحانية، وهمّ بالانصراف؛ فأمسكت بيده قائلة: «أرجوك كفى لا تصعب علي الأمور أكثر من ذلك، أنا أتعذب بسبب مثاليتك تلك، أنا لست الفتاة المناسبة لك، أرجوك ساعدني»

استدار إليها عادل قائلًا: «كفاك أنت رجاءً، من أعطاكِ الحق لتكوني قاضيًا وجلادًا في آن واحد».

زفر ما تبقى في صدره من هواء بنفاذ صبر، ثم قال: «أنا لا أعرف ما هو الحب يا چاسمين، لكني تعلمته وكنت أنت دليلي فيه، ربما لا أكون شاعرًا ولا أديبًا، لكني أثق تمام الثقة أن ما أشعر به تجاهك ليس حبًا فقط، إنما هي حياتي التي لم أعِشها من قبل؛ فكيف أساعدك في أن أتخلى عن تلك الحياة، هل يعقل أن تقولي لشخص: «اترك حياتك فيتركها هكذا بسهولة ويسر»؟

قاطعته چاسمين بتوسل: «إنها شفقةٌ صدقني يا عادل، ما تشعر به ليس حبًا إنما هو تعاطف لما قصصته عليك من أحداث مرت بي، أو شهامةٌ من رجل بقلب إنسان مثلك، أنا لا أريد لك أن ترتبط بي، يكفيني أنك كنت معي رجلا في زمن قلَّت فيه معاني الرجولة، وهذا وحده يكفيني، ويكفينى شرفًا لو اتخذتني أختًا لك، وأن تكن

لي سندًا وظهرًا ألجأ إليه وقتما تتعثر بي سبل الحياة، أرجوك أنت لا تعلم ماذا ينتظرني»

قال عادل بحزم: «هل انتهيت من تحليل شعوري؟ كل ما أطلبه منك الآن أن تؤجلي قراراتك تلك لما بعد سفرنا، وحين عودتنا لك ما تشائين؛ فهل أنتظرك بالخارج أم لا داعي من هذا الانتظار»؟

ردت چاسمين باستسلام لرغبته: «لله الأمر، حسنًا سأخرج إليك بعد خمس دقائق، سأضع الأغراض في الحقيبة سريعًا ولنذهب»

انصرف بعدها عادل وعلى وجهه تعبير امتنان لقبولها طلبه، وعادت هي إلى جمع أغراضها، وقامت بفتح الحقيبة؛ فوجدت بها ملابس أخرى لزوم البيت والبحر؛ فتبسمت وبصوت مفعم بالحيرة والحب معًا رددت: «لو تعلم كم أهواك، لكنه قدري وحده يسير بي نحو رحيلي عنك؛ فأرجوك لا تحزن لرحيلي»

تسير چاسمين على الرمال تداعب مياه الشاطئ قدميها العاريتين وقت الغروب؛ وقد شردت بفكرها في ذكرياتها المريرة التي قاستها مع تلك الأمواج المالحة. لقد حاولت أن تعتذر لعادل عن تلك الرحلة، لكنه لم ينتبه إلى أنها تحاول الهروب من مواجهة البحر وما يحمله لها من أحزان، وهي لم تعتذر صراحة كي ترد جزء من جميله لها؛ فقبلت في النهاية. لم يخرجها من تلك الذكريات سوى نهال

التي جاءت تبحث عنها لتعود بها إلى الفيلا قائلة: «وماذا بعد يا چاسمين، لماذا تركتِنا وذهبت بمفردك»؟

ثم انتبهت لدمعتين متحجرتين على مقلتي عينيها فسألتها: «هل كنت تبكين»؟

أجابتها چاسمين بنفي وهي تمسح عينيها: «لا، لم أبكِ، هيا بنا للداخل يا عزيزتي، دعينا نجهز العشاء»

أجابتها نهال: «حسنًا يا چاسمين، هيا بنا ولكن تأكدي أنك إذا ما أردت من أحد أن يستمع لك ستجديني بجوارك في أي وقت منصته وبكل ترحيب»

شكرتها چاسمين وأخذت بيديها إلى داخل الفيلا.

صباح اليوم التالي، بعد أن تجمع الجميع في جوٍ أسري رائع، تبادلوا فيه الكثير من الأحاديث المختلفة، ولعب طفلي خالد ونهال على مائدة الإفطار أمام البحر مباشرة، ضحك الجميع وما أن انتهى الجميع حتى نظر خالد لنهال نظرة ذات مغزى؛ فهمتها نهال فنهضت وأمسكت بيد زوجها، وقالت بمرح: «أريد أن أتعلم السباحة، هل تعلمني أم لا تعرف»؟ فتصنع خالد الضحك، وقال: «فلتقولي نعلم هدير وأدم أولًا، وبعد ذلك نعلم أمهما»

فقاطعتهم چاسمين بعنف وحدة: «لا يا أستاذ خالد، الجميع

لابد أن يتعلم السباحة، فلا تدري من ينقذ من فيما بعد، فالبحر غادر وليس له أمان»

ثم انتبهت چاسمين للوجوم الذي ساد وجه الجميع؛ فأيقنت أنها تكلمت بحدة أكثر من اللازم؛ فصمتت فجأة وقد ارتبكت واعتذرت لعلوِّ صوتها، فقال خالد مداعبًا ليلطف الأجواء: «فعلا عندك كل الحق فيما قلتِه، لا بد أن يتعلم الجميع السباحة، فلا داعي للاعتذار يا چاسمين»

ثم أخذ بيد زوجته وأبنائه وقال مودعًا عادل: «بعد إذنك يا دكتور، أنا عندي الآن تدريبات لأفراد تلك العصابة الصغيرة»

ثم انصرف تجاه البحر، وهو يجري وراء أطفاله وعلى وجوههم ارتسمت السعادة البريئة.

نظر عادل إلى چاسمين التي تتمثل علامات الخوف على وجهها، وهي تنظر للأطفال وهم يضحكون ويلعبون على الشاطئ مع والديهما.

قال عادل:

–لا تخافي يا چاسمين، إنهم على الشاطئ ليس إلا، ولن يدخلوا إلى البحر بعيدًا عن والديهم.

–آسفة يا عادل، إنك لم ترَ بشاعة ما رأيت أنا من جثث أطفال كثيرة كانت تطفو على الماء، لاحول لهم ولا قوة، وبصحبة ذويهم ولم يسلموا جميعهم من براثن الموت؛ فالموت لا يفرق بين كبير ولا صغير، والبحر لا يرحم ضعيفًا ولا قويًا؛ فالكل عند البحر والموت سواء.

– أإلى هذه الدرجة تكرهين البحر؟ أنا آسف لأنني لم أنتبه إلى خوفك هذا من قبل وأنني تمسكت بحضورك لتلك الرحلة؛ فلقد كنت أقصد الترفيه عنك فقط.

–أنا لا أكره البحر ولكن أصبحت أخشى غدره.

–اهدئي يا عزيزتي ورفقًا بنفسك، إن كنت تريدين أن نرحل من هنا فلنرحل ولا ......

– لا يا عادل، لا أريد الرحيل سأكون على ما يرام، ولكن فقط أعطني فرصة لأواجه ذلك الخوف من الماء وسوف أعود إلى ما كنت عليه من قبل الحادث الذي فقدت فيه أسرتي ونفسي، ثم قالت: «ألم يأتِ الوقت بعد لأسردَ لك باقي حكايتي لعلّني أرتاح قليلًا من ثقل ما أحمله على صدري من أثقال تجثوا على أنفاسي من حملها»

قال عادل: «چاسمين إن كنت سترتاحين بالفعل لو أكملت باقي القصة؛ فأنا هنا الآن لأمنحكِ الراحة؛ فكلي أذان صاغية لك، ابدأي حبيبتي ولا تصمتي قبل أن تنتهِي من آخر كلمة فيها، فبعد انتهائك لسردِ قصتك لن أسمحَ لك أن تتكلمي عنها أبدًا ما حييت، ولا أن تتذكري منها أي أحداث فانتهاؤك منها سوف أعتبره بمثابة يوم ميلادك الجديد في حياتي ودنيتي القادمة إن شاء الله».

الفصل السادس عشر
عــودة للأحداث

«اغتصبني ووثّق الأحداث صوتًا وصورة بالهاتف، يا له من رجلٍ يستغل سلطته وقوته على فتاة ضعيفة فقدت أهلها وشرفها بالبحرِ على يد نفس الشخص! لقد أخبروه أن من يقتل ويغتصب يُسمى رجلًا؛ فأراد اختبار رجولته تلك، ولقد اجتاز الاختبار عن جدارة واستحقاق» بدأت چاسمين سرد قصتها بتلك الكلمات القاسية على مسامع عادل الذي ينفطر قلبه لسماعها، ثم أكملتْ: «كان التعب قد وصل بي إلى منتهاه مما أفقدني الوعي، وأحمدُ الله أنني فقدت الوعي حتى لا أرى تلك اللحظة، رُبَّما فقدت الوعيَ لنصفِ ساعة أو ساعة لا أدري، ولكن حين عودتي للوعي وجدتني على ظهرِ قارب سريع، علمت بعدها أنه يخت المدعو فريد، وكان اليخت منطلقًا إلى حيث لا أعلم، وجدتني أجلسُ على أحد كراسي البحر ممددةً بملابسي، وكان يجلس أحمد القرفصاء بجواري على أرضية اليخت ويتأملني مشفقًا لحالتي الرثة، ويجلس بجواره بعض الناس، علمتُ بعدها أنهم كل الناجين معنا، وكنت أنا الفتاة الوحيدة وأحمد الشاب الوحيد أيضًا والباقي نساء كبار في العمر ورجال، كنَّا

ثمانية أفراد فهمستُ لأحمد متسائلة عمّا حدث فوجدته لا يعلم إلا القليل، قائلًا:

-إنَّ أحد الرجال خرج بي من عند فريد في السفينة يحملني وقد أنزلني إلى هذا اليخت، وعندما سألته ما بيَ! قال إنكِ متعبة وفقدتي وعيك، ثم أُمرِنا جميعًا بالنزولِ إلى هذا اليخت معكِ، وما هي إلا لحظات وجاء فريد هذا ومعه باقي رجاله وانطلقوا بالقاربِ هذا نحو مصر، وها نحن نقترب من الشاطئ، ثم سألني:

-هل كتبتِ وصولات أمانة كما فعلوا معنا حتى لا تتحدثين عن غرق تلك السفينة؟ فعلمتُ أنني الوحيدة التي أُغتصبت فلم أستطيع أن أصارحه بما حدث لي؛ فأشرت برأسي علامة نعم فقال لي:

-لا تُلقي بالًا لتلك الوصولات فهي تحت التهديد وتهدأ الأمور ونهرب منهم ونقاضيهم بما فعلوه معنا.

فأخبرته على الفور:

-ولماذا لا يريدون منا أن نتحدث عن غرق السفينة هذا أمر مريب حقًا. قال أحمد:

-ما لا نعرفه الآن نعرفه عما قريب، فلا تلقي بالًا ولننتظر ما ستكشفه لنا الأيام القادمة.

قاطعنا صوت أحد الرجال المسلحين بصوت أشبه بالصراخ قائلًا:

-لينزل الجميع إلى أسفل القارب، هيا الآن واحرصوا على ألا يصدر منكم أي صوت، وإلا ستكونون لأسماك البحر وجبة غذاء دسمة من بقايا أجسادكم.

ثم دفعنا جميعًا إلى أسفل القارب بعنف وهو يقول:

-هيا إلى الأسفل.

وعند هبوطي مع الآخرين قابلني فريد وهو يصعد لسطحِ القارب وتلاقت عيناه بعيناي فتمتم قائلًا بسخرية موجهًا حديثه لأحد الرجال بجانبهِ ولكن كلماته كانت موجهة لي أنا:

-(اللي تحسبه موسى يطلع فرعون)، يا لبجاحتك! تدعي العذرية وأنتِ في الأصل عاهرة، آه من كيدكن كنت اقتربت من أن أصدقك، ثم ضحك.

ماذا يقصد بأنني أدعي العذرية؟ ووصفه لي بالعاهرة!

يا له من وقح قذر! رمقته بكل حقد وكراهية ولم أستطع أن أتفوه بكلمة، يا له من إحساس رهيب، ولكني أقسم أنني لن أتركه يفلت بفعلته تلك وسأنتقم منه أشد انتقام، ولكن كل في حينهِ وموعدهِ.

ونَزلتُ مع الآخرين وشعرت بما شعر به الآخرين من تباطؤ حركة القارب فهو يقف الآن على ما يبدو.

دقائق مرت ببطء حتى دخل علينا أحد الرجال مرة أخرى، ودفعنا للصعود مرة أخرى إلى السطح وأمرنا بالهبوطِ من القاربِ إلى رصيفِ أحد القرى السياحية، ومشينا قليلًا على المرسى حتى وصلنا إلى ثلاث سيارات سوداء اللون تقف عند نهاية المرسى الخشبي تنتظرنا، فركبنا بها وتحركت على الفور، يا ربي إنها مدينة الغردقة أي أننا الآن في مصر التي كم تمنيتُ ودعوتُ الله أن أرجع إليها من جديد، ولكني أعود إليها دون عائلتي الآن ودون هوية، ليتني ما عدت من جديد؛ فعلى قدر ما تمنيتُ عودتي إليها على قدر ما كرهتُ العودة لها بمفردي بعد كل تلك الأحداث.

توجهت السيارات بنا إلى مطار داخلي، وصعدنا طائرة صغيرة الحجم على ما يبدو أيضًا أنها طائرة خاصة ملك لفريد، أشعر أن كل شيء يتحكم به فريد كما يرغب.

لم يقابلنا أمن مطار ولا حرس حدود من قبلها على الساحل، ولا سيارة شرطة حتى تعترضنا مثلًا على سبيل أننا ندخل لحدود دولة دون اعتراض من أي جهة.

هل مصر هي مملكته الخاصة يتحكم بكل جزء منها كما يشاء أإلى هذه الدرجة يتوغل الفساد وينتشر!

مرحبًا بك يا أرض الوطن!

انتهت رحلتُنا تلك إلى القاهرة وما أن خرجنا إلى أرض العاصمة حتى بدأت سنوات عمري الثلاث بهويتي الجديدة، ولن أحكي بالطبع عن أحمد ومن معي من الآخرين؛ لأني لم أرَهم بعد يومي هذا؛ فلقد أخذني فريد هذا معه في سيارته وتوجه بي إلى شركته التي تُسمى (عبر البحار) ومقرها في (وسطِ البلد رمسيس) سألته بتخوف: (أين الباقين)؟

فأجابني بكلماتٍ مبهمة:

–انسيهم ياعزيزتي، فأنتِ فقط من ستعملين معي في شركتي تلك، وكما وعدتك غدًا تمتلكين هوية جديدة، وعما قليل سأرسلك إلى مكان إقامتك الجديدة أيضًا، ولنا بعد غد لقاء وتعيشين حياتك ما دمتِ لم تتذكري من أنتِ؛ فأنتِ في أمان، أما إذا تلاعب الشيطان بكِ وحاولتِ الهروب فلا تلقي اللوم إلا نفسك.

وقعت كلماته تلك على نفسي كمرارة الصبار على طرف اللسان مُرًا وعلقمًا.

تجرعت كلماته وكنتُ أتمنى لو أستطيع الرد على تلك الكلمات بطعنات، لكن أخشى من تسرعي فأفقد كل شيء دون أن أردَّ اعتباري، فلتهدئي يا ﭼاسمين فكما يقولون بالأمثال «أخذُ الحقِ حرفة» لكن ما قاله لي بعد ذلك أشعل كل ثورات الدنيا بداخلي.

وقد جلس على أحد المقاعد في ريسبشن الشركة مُشيرًا إليّ أن أجلس أمامه:

– لماذا ادعيتِ أنكِ عذراء يا عزيزتي؟ هل بما فعلتيه هذا كنتِ تعتقدين أنه سيحميكِ مني؟ يا لكِ من سيدة بلهاء.

ماذا يقول هذا القذر ولماذا يتهمني بتلك التهمة البشعة؟ أيخبرني بذلك حتى يهرب من فعلته تلك معي والله لأُذيقنة العذاب حتى يتمنى أن أقتله.

يارب أعنّي على الصبر، تكلمتُ بصوتٍ منخفض وسألته دون أن أستطيع النظر لعينيه:

–أنا لا أعرف عن ماذا تتحدث، ولكن هل تعتقد أنك بذلك تنفي التهمة عن نفسك؟ يا فريد باشا لن أتحدث عمّا مضى فليسامحك الله عمّا فعلته معي إن كان لك عذرًا عند وقوفك أمامه لتقدمه عن فعلتك تلك ولن أسامحك صدقني.

–أما زلتِ تنكرين أنك لستِ بعذراء؟ إذًا فلتُذكريني لاحقًا لأجعلك تتأكدين من هذا الأمر لتشاهدي الفيديو بنفسك.

ثم اتصل بإحدى السيدات وقال لها:

–هل أتممتِ ما أمرتك به؟

استمع قليلًا ثم قال:

–إذًا فلتحضري لأخذها معكِ فأنا أريد أن أنصرف الآن لقد كان يومًا طويلًا على الجميع ثم أنهى اتصاله.

ووجه كلماته مرة أخرى إليَّ قائلًا:

–ستذهبين مع إحدى عاملاتي إلى مكان إقامتك وسيأتي لكِ غدًا أحد موظفي السجل المدني ومعه دفتره وأختامه. انتقي لنفسك اسمًا كما يحلو لكِ هذا ما ستكونين عليه الفترة القادمة، وبلغيه أيضًا بياناتك الأصلية ليستخرج لكِ بطاقتك الحقيقية، ولكنها ستبقى معي لحين الإنتهاء من تلك الأزمة. هل كل شيء واضح لك أم تريدين الاستفسار عن شيء آخر؟ سألته بتعجب:

– هل كل شيء بسيطٍ هكذا؟

قال على الفور:

–نعم، وستعلمين فيما بعد أنني لا يقف أي شيء أمام رغبتي في هذا البلد.

ثم أشار إلى باب الشركة التي دخلتْ منه فتاة في الثلاثينات من عمرها ترتدي بدلة رصاصية اللون هي الزي الرسمي للشركة وأكمل قائلًا:

–وها هي نرمين قد وصلت فلتذهبي معها.

أخذتني نرمين إلى سكني وهو عبارة عن شقة قريبة من مقر الشركة (بالتحرير) غرفتين وصالة، تسكنها نرمين وحدها وبوجودي معها أصبحنا شركاء في نفس الشقة، نرمين فتاة طيبة للغاية حضرت للقاهرة من ضواحي محافظة الشرقية للعمل، أرملة مات زوجها مع صغر سنها، ليس لديها أولاد، رقيقة الملامح ذات جسد مثالي، عيبها أنها ليست محجبة وترتدي ملابس على الموضة، لها غرفتها ولي غرفتى، وفيما بعد ستكون أقرب الناس لي في الثلاث سنوات التي أقضيها معها.

مر كل شيء كما خطط له فريد حرفيًا أصبحت أُدعى الآن (سهام)، أو تدرون لما اخترت سهام لأني عزمت على أن أوجه نحو كل من ظلمني لاحقًا سهمًا سهمًا.

استدعاني فريد لمكتبه وسألني عن دراستي الجامعية لكي يحدد لي وظيفتي فأجبته أنني (خريجة كلية طب قسم صيدلة) فألحقني بالقسم الطبي بالشركة.

هنا استوقفها (دكتور عادل) باستغراب قاطعًا لها سرد حكايتها:

– چاسمين أنتِ خريجة صيدلة ولمَ لم تخبريني ذلك الأمر من قبل ؟

تبسمت چاسمين رغمًا عنها وهي تُجيبه:

– هناك الكثير والكثير يا عادل لا تعرفه عني فهل علمت الأن أنك أحببت مجهولًا لا تعرفه؟ أتمنى أن تؤمن بذلك.

عادل:

– بالفعل أمنت بأنني كل يوم أجد فيكِ أمورًا تستدعي أن اقترب منكِ أكثر، من فضلك أكملي لي قصتك يا چاس ...آسف اقصد يا سهام، فلقد اقتربنا للنهاية.

أقرت سهام؛ نعم لقد اقتربنا من النهاية يا عادل، سأفاجئك من تلك النهاية فيا لها من نهاية لكل آلامي وحزني وتعاستي وشقائي»

الفصل السابع عشر
انتقام أُنثى جريحة

لقد كان غرق السفينة حديث كل وسائل الإعلام والصحافة، وغضب للرأي العام؛ حيث كشفت كل الأحداث عن تعمد غرق السفينة من أجل صرف بضعة ملايين من التأمين على السفينة؛ حيث كانت متهالكة وغير مستوفية لشروط السلامة، ومما أثار غضب الرأي العام أن الناجين من الحادث بعد وصولهم للمستشفيات وظهورهم على شاشة التلفاز لم يستدلْ عليهم من بعدها، وبمراجعة ذويهم لسجلّات المستشفيات لم يستدلوا على وصولهم لتلك المستشفيات؛ مما أثار جنون ذويهم، وحتى طاقم السفينة الذي هرب وقت غرقها لم يظهر لهم أي وجود؛ فلاح في الآفاق كل ما يستدعي الريبة والشك لدى الجميع، وأكد على وجود فساد لا تخطئه العيون، أفمن أجل بعض المال تزهق تلك الأرواح بكل لا مبالاة لقيمتها؟!

يا لقساوة بعض قلوب البشر، ومن بينهم فريد الذي هو نجل لأحد ذوي النفوذ، وهو الوحيد الذي لم تنله أصابع الاتهام مثلما نالت من أبيه صاحب السفينة الغارقة، وما لبث أن سافر إلى إحدى

الدول الأوربية لصرف قيمة التأمين، واستقر به الحال وأقام هناك لا مباليًا لضحايا أو لقضاء لحين انتهاء التحقيقات، وظهور كلمة القضاء وترك كل شيء لولده الفاسد الصغير فريد، ومثل كل قضايا الفساد والمفسدين انتهى كل شيء لمصلحة كل أصحاب النفوذ، ولم يبقَ إلا أن يعترف الضحايا بأنهم هم الخاطئون؛ فلماذا لم يتعلموا السباحة من أجل إنقاذ أنفسهم؟ وهل على أصحاب النفوذ أن يعلموهم السباحة من أجل نجاتهم؟

بالطبع لا، فالحمد لله لقد ظهرت براءة السفينة وأصحابها ووسائل الإعلام الطاهرة، وظهر الجاني الحقيقي على حقيقته؛ إنه أنت أيها الضحية، يا رخيص الثمن، فلننتهِ من كل تلك الضوضاء ولنلتفت إلى أعمالنا.

أثناء كل تلك الأحداث بدأتُ عملي بكل اجتهاد وكأني لم أتعرضْ لأي شقاء في العالم «فما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا».

ماتت چاسمين الطاهرة البريئة وأقبلت سهام على الحياة بكل طاقتها، وتأقلمت على حياتها الجديدة مع نيرمين في السكن من جهة ومع الطاقم الطبي بالشركة من جهة أخرى.

كنت قلما أرى فريد من حين لآخر أثناء تواجده بالشركة، فكُنا ننظر لبعضنا بعضًا نظرات لا يفهمها سوانا، وأحيانًا يلقي عليّ سلامًا عابرًا وفي الغالب كنت أتمتم بكلمات غير مفهومة وكأنني أرد عليه التحية.

مرت الأيام سريعًا حتى صارت شهورًا، واكتسبتُ احترام جميع من يعملون معي، مع اكتساب بعض العشاق المتيَّمين بجمالي، وكنت أعتذر بكل أدب دون أن أسيء إلى أي إنسان، وكنت أدَّعي أني مرتبطة لأحد أقاربي ولكنه يعمل بالخارج، حتى أنني كنت أحيانًا أتحدث في المحمول مع نفسي أمام نرمين وكأنني أخاطب خطيبي المزعوم هذا، حتى إذا ما قصدها أحد الخطَّاب لتتوسط له عندي؛ تبادرهم بما تراه من أحاديث كاذبة؛ فيصرف اهتمامه عني، حتى أتى اليوم الذي كنت أتمناه وجاءني اتصال من فريد على الخط الداخلي يستدعيني للمثول أمامه في مكتبه، لم أتباطأ للذهاب إليه؛ فكم كنت أشتاق لتلك اللحظة التي تجمعني به في مكان مغلق لأتحدث إليه وأُلقي إليه بطُعمي وصنارتي لاصطياده وإيقاعه في شرور أعماله وها هي قد حانت؛ فذهبتُ إلى مكتبه وطرقتُ الباب ودخلت، قابلتني سكرتيرته وأذنت لي بالدخول فدخلتُ عليه مكتبه، وكانت أول مرة أرى بها تلك الغرفة الفارهة.

كان واقفًا أمام النافذة ينظر إلى الحديقة الواقعة أمام مبنى الشركة عاقدًا يديه خلف ظهره، لم يلتفت لي عند دخولي، بل تكلم دون أن ينظر إليَّ، وبصوت هادئ قال لي: «مرحبًا يا سهام، من فضلك أغلقي الباب قبل أن تجلسي»، رجعتُ إلى باب الغرفة وأغلقته، ثم وقفت عند مكتبه دون أن أتحدث منتظرة كلماته.

لقد كان بيني وبينه المكتب فقط، كم تمنيت أن أطعنَه في ظهره ولكن هذا لا يشفي غليلي، فقد خططتُ له ما هو أشد انتقامًا، سيلازمه طوال حياته ويتمنى أن يموت آلاف المرات كما أمات كل شيء بداخلي؛ فأنا لا أستطيع الحياة على طبيعتي، لا أستطيع أن أُحِب أو أحَب، لا أستطيع أن أتزوج، لا أستطيع أن أكون مثل باقي الفتيات، وكأنه كان يقرأ بنات أفكاري فالتفت إلي وبادرني متسائلًا: «لماذا استسلمتِ كل ذلك الوقت يا سهام، أم أقول يا چيسي؟ أعتقد أنكِ قد اشتقتِ كثيرًا لاسمك الحقيقي»؟

قلت له: «هل أرسلت لتسأل عن اشتياقي لاسمي؟ أرجوك أفصح عما بداخلك فعندي عمل ولا أريد التأخر عليه».

ضحك باستهزاء لكلامي قائلا: «خائفة من التأخير على عملك وأنا صاحب العمل نفسه؟»

ثم أكمل بسخرية: «لا تخافي يا عزيزتي، نفسي تأذن لكِ مني حتى لا تتعرضين للجزاء».

ثم ظهر على ملامحه الجدية وقال مكررًا نفس سؤاله: «لماذا استسلمتِ طوال تلك السنوات الماضية؟ سؤال يؤرقني منذ أن أحضرتكِ إلى هنا ولا أجد له جوابًا، فتاة مثلك فقدت كل أهلها بغرق سفينة كنت أملكها، ولم أتوانَ عن التحرش بها دون مراعاة حزنها، واغتصبتها وأهددُها بمقطعٍ فاضح لها دون الخوض في مهاترات أنكِ كنتِ حينها عذراء أم لا؛ فلا يهمني حقًا كونك كنتِ أم لا، أكثر مما يهمني لمَ لمْ تنتقمي مني، أو تحاولي الهرب وأنتِ تعلمين جيدًا أني لا أستطيع أن أنشرَ هذا الفيديو عبر وسائل الإعلام أو الإنترنت؛ لأنه يُدينني قبل أن يدينك؛ فأنا شخصية معروفة بالمجتمع ولي سمعتي، ولن أغامر مطلقًا بفقدها، أليس هذا كله يستدعي التساؤل يا چاسمين»؟

ثم أشار لي لأجلس أمامه فلم أجلس، وقلت له: «فريد باشا، أنا كما تعلم فتاة فقدت كل أهلها بالسفينة كما أشرت لذلك، فإلى أين أذهب ومن أين أعيش؟ أنا فعلًا خسرت كل شيء، ولكن رضيت بما ساقه الله لي، ولا أخفي عليك كم كرهتك، وكنت أتمنى أن أقتلك ولكن إلى أين أذهب ولا مكان يأويني ولا عائل يتكفل بي، ولذلك

فكرت بعقلي جيدًا قبل قلبي؛ فتنازلتُ عن كل شيء مقابل أن أسير بجوار الحائط كما يقولون، وكلها حياة ونعيشها طولًا وعرضًا، هذا كل ما في الأمر ولا داعي للتعجب، ولا للتساؤل. أما عن كوني عذراء أم لا؛ فأقسم لك أنني عند رؤيتك كنت عذراء ولم يمسسني بشر من قبل؛ فلتصدق هذا أو لا تصدق، فهذا لم يعد يعنيني في الوقت الحالي، فلقد حَرمتُ على نفسي الزواج والحب ما دمت لم أحافظ على شرفي؛ فلا داعي لكشف ما ستره الله».

سألني بحدة: «لماذا تصرين على أنكِ كنتِ عذراء؟ أنا قد تيقنت من ذلك، هل تنسين»؟

قلت له: «لا لم أنسَ ولكني أحاول نسيانه، فلا تذكرني أنت مجددًا به رجاءً، ولقد أقسمت لك ولا داعي لإعادة قسمي، ومن فضلك لو كنت أرسلت في طلبي للحديث في هذا الموضوعِ فقط؛ فأستأذن منك أن أنصرف لعملي، فكما قلت أنت، أنا قد استسلمت لقدري فلتتركني وشأني وقد سامحتك على ما فعلته معي كله، فهلا أذنت لي بالانصراف»؟

قال لي: «كما تشائين يا چاسمين، ولكن تلك الفلاشة بها فيديو خاص بكِ، لتشاهديه وقتما تريدين التأكد من صدق كلامي فلم أعد بحاجة إليها، وإذا شئتِ مغادرة الشركة فكما وعدتك

أنتِ الآن حرة وتستطيعين أن تستردي حياتك القديمة، وتلك بطاقتك باسمك الحقيقي، وكذلك جواز سفرك مختوم بخروجك من السعودية ومختوم دخولًا إلى القاهرة بتاريخ دخولك الحقيقي لمصر، ولا تقلقي إنه سليم وليس مزورًا كسهام».

أصابني الذهول وأنا أمد يدي لألتقط تلك الأوراق منه، ولم أعرف أن أحدد مشاعري حينها هل أصدق ما أسمعه أم أكذّب أُذناي وعيناي؟

أخذت منه الأوراق وفتحتها بلهفةٍ، إنها حقًا خاصتي وكل البيانات سليمة وحقيقية؛ فحمدت الله! هذه بارقة أول أمل لي لأخذ حقي كاملًا وبدون عناء ولا تخطيط، فلم أكن أخطط لاسترداد شخصيتي أبدًا؛ لأني كنت أتصور ذلك شيئًا مستحيلًا، كنت فقط أريد انتقامي منه شخصيًا وكفى.

ثم قلت له: «لا أعرف أأشكركَ أم ألعنك، ولكن ألا تخشى أن أهددك أنا بما في تلك الفلاشة»؟

أجابني مبتسمًا: «لا، لا أخشاك؛ فكل ما فيها أنت فقط، أما أنا فقد طمست ملامحي فوتوشوب يا عزيزتي، لن تستغليها كما تعتقدين».

ثم قال لي: «هل چاسمين معنا وتعمل أم سنودعها ونأمر لها بمبلغ مالي نظير نهاية خدمتها السابقة»؟

فنظرت إليه متسائلة: «ماذا تعتقد أني فاعلة من وجهة نظرك»؟

أشار بيده علامة عدم المعرفة، ثم قال: «لا أدري، ولكن القرار قرارك كما يحلو لك، خذي وقتك في التفكير وأنا منتظر؛ فلا تتسرعي، وعند رجوعك للعمل الآن أرسلي لي أي شيء يخفف آلام ذلك الصداع في رأسي».

ثم قام والتفت إلى النافذة وعقد ذراعيه خلف ظهره من جديد، فلم أجد شيئًا لأضيفه من كلمات فانصرفت بعد أن دققت في نعشه أول مسمار، وقريبًا سيلتقط الطعم؛ فأنا لا أشك بذكائي أبدًا.

كاد الفضول يقتلني وأنا أمتلك تلك الفلاشة اللعينة وأجاهد نفسي حتى لا أرى ما فيها، وهممت كثيرًا في نفس ذلك اليوم بالتخلص منها وفي كل مرة أعود وأضعها في حقيبة يدي مخالفةً رغبتي في التخلص منها؛ حتى حان وقت الانصراف من العمل، وجاءني اتصال من نرمين تتفقدني فيه وتخبرني أنها تنتظرني خارج أبواب الشركة؛ لنعود إلى منزلنا كما نفعل عادةً كل يوم.

حملت حقيبتي وأثناء مروري لمغادرة المكان وقع نظري على

جهاز الكمبيوتر، فاستوقفتني غريزتي وهزمتني. وجدت نفسي أخرج الفلاشة من حقيبتي وأضعها سريعًا بالجهاز، يكاد قلبي ينتحر بالخروج من صدري من شدة خفقانه. نظرت سريعًا من حولي متفقدة الغرفة بالكامل؛ خشية وجود أي متطفل يشاركني التلصص على ما أراه في تلك الفلاشة.

اطمئن قلبي لخلو المكان؛ فضغطتُ على أيقونة الفتح ففتحت وتسارعت أنفاسي المتلاحقة، وتزايدت ضربات قلبي حين وجدت بها مقطع الفيديو الخاص بي يقبع بداخلها وحيدًا؛ فارتعشت يداي وأنا أحاول تثبيت أناملي لأتمكن من ضغط المقطع ليتم عرض ما به، وما أن نجحت في الضغط أخيرًا عليه حتى عاد بي الزمان ثلاث سنوات مضت، وأُعيدَت لي ذكريات مُرَّة أليمة. كنت أدعو ربي في كل صلاة أن تُمحى من الذاكرة ذكريات محاولتي الهرب من داخل تلك السفينة المشئومة، ومقاومتي لفريد، واستعطافي، وتوسلاتي له ليرحمَ ضعفي، وقلة حيلتي، ودموعي التي سالت كشرر جمر ملتهب تحت أقدامه ليتركني عذراء بريئة نقية، ولكنه لم يستمع إلا لصوت شيطانه حين ذاك.

دارت الأرض من حولي وزاغت عيني من هول ما رأيت من استحلال جسدي الذي حرمه الله على يد ذلك الوغد وقد انتهكه

في الحرام دون إرادة ولا حول مني ولا قوة، فقد كنت غائبة عن الوعي بين يديه الملوثتين بذنبي.

ماذا سأكون في نظر كل من شاهد هذا الفيديو؟

هل سيتهمونني بأني فتاة ليل عاهرة كما نعتني بها فريد لاحقا؟

ومن غير فريد تمنى أن يمارس معي الرذيلة عندما رأى ما فعله بي؛ فالله وحده هو من يعلم من رأى هذا الفيديو غير فريد هذا؟

أما المصيبة الكبرى التي قضت علي حقا أنني بعد انتهاء هذا الفيديو تيقَّنت أنني بالفعل لم أكن عذراء؛ فكيف حدث هذا ومتى؟حقا لا أعلم.

يكاد عقلي يصيبه الجنون، أنا أقسم أني عذراء، أقسم أني عذراء، ثبّت عقلي يا الله، ألا لعنة الله عليك يا فريد ولعنة الله على يوم أن رأيتك، ولعنة الله على سفينتك التي ضاع بها كل شيء له معنى في حياتي!

أين دليل براءتي أمام نفسي قبل أن يكون أمام البشر أو دليل براءتي أمام الله جل جلاله؟

لقد توقف عقلي عن إدراك الحقيقة،

ولم يتبقَ لي سوى سؤال واحد: «هل كنت حقا سيدة ولا أدري»؟

أظلمت الشاشة مع انتهاء عرض الفيديو، وأظلمت كل سبل حب الحياة معه أمام عيني.

أخرجت الفلاشة من الكمبيوتر بأنامل مرتجفة، ووضعتُها من جديد في حقيبتي وأنا شاردة الفكر لا أعرف ماذا أصنع.

لم يتملكني إلا العبرات الحارة المقهورة التي تسيل على جانبي وجنتيّ، تلفح مسام وجهي مع كل عبرة تمر من خلالها قهرًا وكمدًا.

ظللت على تلك الحالة من اللاوعي وأنا أنعي حالي الرث، حتى أفقت على رنين هاتفي مرة أخرى باتصال من نرمين تستعجلني للخروج من الشركة؛ فنظرت إلى الرقم ومسحت بيدي دموعي، وبعيون غائرة ترقرقت فيها دموع من جديد ولكنها أبت أن تغادر مقلتي كبرياءً، خرجت إلى الخارج مسرعة لأستنشق بعض الهواء النقي؛ لعله يفتح رئتي التي ضاقت اختناقًا بداخل صدري، وخطوات بخطوات بطيئة واهنة أستجمع شجاعتي من جديد لمواجهة نرمين دون أن تشعر بانهياري، لكن هيهات أستطيع؛ فحين خرجت وأنا أكاد أفقد الوعي من كل ما يحدث لي من مصائب حتى لم أقوَ على أن تحملني قدماي؛ فجثوتُ على ركبتي ورفعت نظري إلى السماء، وصرخت بداخلي:

«يا الله، أنا لم أخطئ بحياتي كلها خطأ أستحق عليه هذا العقاب، فإن كنت تعلم أني أستحق عقابًا على ما أجهله فلتغفرَه لي وترحمني من ذلك العقاب القاسي، وإن كنت تبتليني لتختبرَ صبري فقط فأرجوك يا رب أن تصرف عني ما تبقى من هذا الابتلاء؛ فلا أستطيع أن أتحمل المزيد وأخشى أن أكفر بقضائك، ثقتي بك ليس لها حدود؛ فلترحم ضعفي يا الله، فأنا لست بقوة مريم العذراء ولا بصبر ماشطة ابنة فرعون».

شاهدتني نرمين من على البعد؛ فهرولت إلي تساعدني على الوقوف، وبادرتني بلهفة وتساؤل قائلة: «هل أنت مريضة؟ ما بك أخبريني»؟

هدأت قليلًا لمناجاتي رب الكون وشعرت براحة تسكن قلبي وأن الله معي وليس ضدي؛ فقلت لها: «الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله».

وكررت الحمد كثيرًا وأنا أقف على قدمي، ثم قلت لها: «أرجوك أريد أن أذهب إلى طبيبة نساء فورًا؛ فهل هنا طبيبة قريبة»؟

فزعت نرمين وسألت بدهشة: «هل أنت حامل؟! ولكن من أين لك هذا»؟

فتبسَّمت لقولها الساذج وقلت لها: «حمل؟ وكيف لي بحمل وأنا معك ليل نهار»؟

ثم تصنعت ضحكة وهمية وأخبرتها بأنه لدي بعض الاضطرابات في الدورة الشهرية تسبب لي ألمًا حادًا في جسدي، أريد أن أعرف سببها وأعالجها؛ فردت بارتياح بلهجتها المعروفة بها: «سامحك الله، تجمد الدم في عروقي، نتناول الطعام بدايةً وبعد ساعة نذهب إلى أقرب طبيبة حتى تكون العيادة فُتحت أبوابها؛ الوقت الآن كل العيادات مغلقة».

وبالفعل ذهبنا لتناول الطعام في أحد المطاعم، وسألت نرمين على موقع العيادة وأنا لا أطيق الانتظار؛ فدلتني وقالت: «سأذهب معكِ»، فأخبرتها أنني سأذهب بمفردي؛ لأن تلك العيادات تكون مزدحمة وربما أتأخر، فلتذهب هي إلى البيت لتجهزَ لنا طعام العشاء والإفطار.

فاقتنعت بحجتي وانصرفنا كلٌّ إلى وجهته، توجهت أنا إلى العيادة وانتظرت إلى أن حان دوري، ودخلت إلى الطبيبة وقابلتها.

عرّفتها بنفسي على أنني سهام، طبيبة صيدلانية، وأني قد تزوجت منذ ثلاثة شهور، ودخل زوجي بي وأنه اتهمني في شرفي، وأنا لم أمارس جنسًا أبدًا مع أي إنسان، ولا حتى عن طريق الخطأ بنفسي،

ربما أكون عن طريق الخطأ وأنا صغيرة فضضت غشاء بكارتي دون أن أشعر، وأنني حضرت إليها الآن للتأكد من عذريتي.

أعتقد أن كلامي لم يقنعها، ولكنها قامت بواجبها نحوي وصعدت على "الشازلونج" ونزعت ملابسي التحتية، وقامت هي بالكشف وعيناي تتابع تعبيرات وجهها بكل تضرع، ولساني يردد تسبيحات واستغفارًا ودعاءً، وظهرت على وجهها ابتسامة عريضة، شعرت أنها خير من الله سيسوقه الآن على لسان تلك الطبيبة؛ فقلت لها متلهفة: «أستحلفك بالله أن تخبريني سريعًا عن صحة هذا الاتهام من عدمه».

فقالت: «انهضي يا دكتورة وارتدي ملابسك، أقسم أنه من الخزي أن تقع طبيبة مثلك درست الطب فيما يقع به عوام الناس من جهل بالأمور الطبية تلك».

سألتها بلهفة: «أنا ما زلت عذراء؟ مع أن زوجي عاشرني ولكني ما زلت عذراء؟ هل أنا على صواب»؟

بادرتني: «بالتأكيد نعم يا عزيزتي؛ فأنتِ ما زلتِ عذراء، فكيف لم تستطيعي أن تبرهني لزوجك أنك تملكين أحد تلك الأغشية التي لا تُفض بكارتها إلا مع الولادة؟ أو على أقل تقدير بمعاشرة جنسية حميمية عنيفة أكثر من اللازم لفض غشاء بكارة آخر، ألم تدرسي

بكلية الطب أن هناك أنواعًا متعددة من أغشية البكارة؟ أحدها هو الغشاء المطاطي الذي غالبًا ما يخرب بيوتا كثيرة، وتظلم نساء كثيرات بسببه؛ لجهل الناس به، مثله مثل الغشاء المسامي الذي يليه في الخطورة؛ نظرًا لحمل البنات دون الإيلاج ودون أن يتعرضن لفض بكارتهن، ومع ملامسة المني فقط يتم الحمل أيضًا، وإنه ليس كالغشاء المعروف للعامة».

سجدت إلى الله شكرًا، وقلت: «الحمد لك يا رب أنني عذراء وما زلت؛ فهذا فضل منك وحدك»، ثم قمت من سجدتي وأخبرت الطبيبة: «أرجوكِ أريد تقريرًا بهذا الكلام لإعطائه لزوجي؛ عسى أن يصدق أنني بريئة من اتهاماته لي».

فقالت: «بكل تأكيد، سأعطيكِ تقريرًا؛ فهو حقٌّ ولا بد أن يرد إليكِ».

ثلاثة أيام مضت وأنا أنتظر عودة فريد إلى الشركة؛ فلقد سافر لقضاء عمل ما ولم يعد بعد.

كنت أنتظره بفارغ الصبر حتى أواجهَه بتقرير العذرية أولًا، ولتقربي له ولحياته من قريب ثانيًا.

فلقد حانت لحظة هروبي من تلك الحياة التي أمثل فيها دورًا ليس بدوري، أنا چاسمين ولست سهام، أنا البريئة ولست الجانية،

أما آن الأوان لأبدل هذا الدور الذي طالما وضعني في زمرة الضعفاء المجني عليهم؟

لقد آن الأوان لأكون أنا الجانية، لقد حلمت كثيرا بتلك اللحظة، فلتعد يا فريد؛ لتتلقى أكبر صفعة في حياتك، ولتتذكرني أبد الدهر ما دمت حيًّا يا عزيزي الذكر.

وها هو قد عاد من رحلة عمله، انتظرته حتى الساعة التاسعة، ثم صعدت إلى مكتبه، واستأذنت في الدخول؛ فأذِن لي على الفور؛ طرقت بابه ودخلت متوجهة مباشرة إلى حيث يجلس، وبحركة مسرحية ألقيت بتقرير الطبيبة على مكتبه أمام يديه؛ فرفع نظره إليّ باستغراب متسائلًا: «ما هذا يا أستاذة»؟

«دليل براءتي، أيها الرجل الخبير بأمور النساء».

فتح الظرف وأخرج منه تقريري الطبي وقرأه، ثم ألقاه أمامي من جديد مبتسمًا، ثم قال بسخرية:

–كم دفعتِ للطبيبة؟ أخشى أن تكون قد استغلتك وطلبت منكِ مالًا كثيرًا.

–لم يكلفني التقرير سوى ثمن الكشف فقط؛ فهذه هي الحقيقة، ولست مضطرة لدفع رشوة في تقرير حقيقي، فلترسلني إلى أي طبيب تثق أنت به، وسيخبرك بنفس ما كتبته الطبيبة هنا؛ لأنها الحقيقة.

فريد باستهجان:

– وماذا أخبرتِها؟ أنك تعرضتِ لاغتصاب وتُريدين الاطمئنان أنك ما زلت عذراء؟

فقلتُ:

–لست بهذه الجرأة للأسف، لقد أخبرتها أني تزوجت وزوجي يتهمني بعدم العذرية، فما السبب؟ فعاينتني وظهر السبب الموضح أمامك.

ثم انحنيتُ إلى أذنه وهمست له فيها بكل أنوثة: «وكلمة ضعها في أذنك، لقد سخرت منك كثيرًا وقالت إنك لست رجلًا؛ كونك لم تستطع أن تفض غشاء بكارتي الرقيق، وقالت لي نصيحة أنصحها لك...»

واقتربت بشفتي من أذنه لتلهب أنفاسي أذنَه بإثارة، وهمست بكل دلال:

«في المرة القادمة، هذا على فرض أنك زوجي وأن هناك مرة قادمة، لقد أخبرتني أن أضع لك منشطات جنسية بعصير أو ما شابه، عسى أن تساعدك على أن تكون رجلًا كاملًا وقت العلاقة؛ فهي تشك أن الارتخاء كان هو السبب».

ثم اعتدلت أمامه، ووضعت يدي في جيبي وأخرجت له شريط "فياجرا"، ألقيته أمامه وقلت له: «أنصحك أن تتعامل بهذا فيما بعد؛ لتستر نفسك أمام عاهراتك الكثيرات، فأنت رجل مشهور، وأخشى عليك من الفضيحة والقيل والقال».

ثم نظرت إلى وجهه لأرى أثر إهانتي عليه؛ فوجدته تلون بلون أحمر، معبرًا عن مدى غضبه الشديد الذي يكتمه بداخله حتى لا ينفجر في وجهي؛ فقد أهنت رجولته إلى أقصى حد، فهو ككل رجل شرقي الموت أهون عليه من أن يتهم بتقصير في علاقاته الجنسية؛ فاطمئننت على تأثير كلماتي عليه فقلت له:

«أمامي أسبوع يا فريد باشا، وسأنتقل إلى الإسكندرية لأبحث عن أهل چاسمين؛ فلقد اشتقت إليهم حقًّا، فهل تأمر بصرف المال الذي وعدتني به عند تركي للعمل هنا أم تراجعت عن وعدك لي»؟

نظر إليّ والشرر يتطاير من عينيه:

«وهل بعد إهانتك لي هكذا تطمعين أن أفي بوعدي لكِ يا چاسمين؟ ثم ما هذه الجرأة التي تتحدثين بها؟ لقد تغيرتِ، لا تعتقدي أن كلامك هذا أقنعني بما لا أصدقه؛ فيبدو أنكِ لم تشاهدي الفلاشة التي أعطيتها لكِ، أنصحك بأن تشاهديها أولًا قبل أن تندفعي خلف أوهام طبيبتك البلهاء الكاذبة تلك».

فقلت له: «بالفعل لم أرَها، فلم أجرؤ على أن أشاهد ما تحتويه؛ فبكل تأكيد بها ما لا يسعدني رؤيته أبدًا، ولذلك تخلصت منها في أقرب سلة مهملات. وأما عن تغيري فأنت صاحب الفضل في تغيري هذا، ولا أنكر ذلك مطلقًا»، ثم دنوت منه حتى وصلت إليه، وقلت له دون أن ترمش لي عين، وتعمدت أن تخرج أنفاسي من بين شفتي لتلهب وجهه وتثيره:

«نعم تغيرت بسببك، لقد قتلت بداخلي براءتي يا فريد، وبفضلك أصبحت سهام الضائعة في تلك الدنيا الواسعة، وحرمت عليّ كل وسعها وجعلتني لا أستطيع التمتع بها، فماذا تنتظر من إنسانة مثلي أن تفعل بحياتها؟ جعلتني أدفع ثمنًا لا أستحقه، ويا ليته كان يستحق! ولكن حتى هذا الثمن كان لشيء لم تستطع أن تنهيه، وكنت غير جدير بمسمى ذكر، لقد كشفتك لي الطبيبة وأخبرتني أن من مارس الجنس معي ليس رجلًا، ولم يستطع أن يثبت رجولته فأوهم نفسه وأوهمني بأنني عاهرة؛ ليداري عجزه كرجل. هل تعلم يا فريد، أنا أشفق عليك؛ فأنت مثلي، محطم ولكنك تكابر، ومما زادني بعجزك يقينًا تعجبي لماذا لم تتزوج حتى الآن، شاب مثلك لديه كل شيء ولم تتزوج، فهل تريد إقناعي أنك لم تجد من تتزوجها

حتى الآن، أم أنك تخشى الزواج من أجل أن لا ينكشف أمرك المخزي»؟

اعتدلت قامتي ووقفت مزهوة باكتشافي المزعوم؛ لأثير أقصى حقد لديه نحوي، واتجهت مجددًا نحو باب الغرفة عازمة على الانصراف، والتفتُ إليه لألقي عليه آخر كلمات في المسرحية التي أمثلها عليه، ورأيت حقده وغلّه نحوي؛ فعلمت أنني أبدعت في دوري، فأخبرته: «أما عن وعدك لي بالنقود فلا أريدها، هي مني لك هدية؛ لعلها تكفي لذهابك لأحد الأطباء ليعالج لك مشكلتك أيها الأسد. الآن حان وقت رحيلي، سأذهب لسكني الذي استأجرته لي طوال تلك السنوات الثلاث، وسأجمع أغراضي منها ولن تراني أبدًا».

انتفض من على مكتبه، وبصوت حاد قال:

«چاسمين، قفي؛ سأدمرك لو خطوتِ خارج هذا الباب! اسمعيني أولًا، فلقد سمعتك حتى انتهيتِ من كل ما قلتِه عني».

وقفت ولم ألتفت إليه، بل قلت له على الفور وظهري نحوه:

«تدمرني؟ أولم تدمرني بعد؟ يا لك من رجل مغرور أحمق»!

أغلقت الباب خلفي وخطوتُ بسرعة قبل أن يخرج ويلاحقني لألحق أنا الذهاب إلى سكني وأنتظره هناك؛ لأتم ما بدأته

منذ ثلاثة أيام مضت، وبالأدق منذ سافرت نرمين إلى بلدها الشرقية لزيارة أهلها هناك، فهل علمتم الآن لمَ كنت أنتظر فريد تحديدًا في هذا الوقت؟ ليعود من سفره قبل أن تنتهي إجازة نرمين التي حصلت عليها للسفر والعودة نهاية الأسبوع. خرجت سريعًا من باب الشركة وأخذت من أمامه تاكسي يقلني إلى سكني القريب من الشركة كما أشرت من قبل، ووصلت سريعًا؛ فلم تكن بساعة ذروة فكانت الطرق غير مزدحمة، وصلت إلى العمارة وصعدت إلى الطابق الأخير؛ حيث توجد شقتي، فتحت بابها ودخلت في عجالة، وأغلقت خلفي بابها، وبدأت في ترتيب كل شيء سأستعمله عند وصول فريد، أعرف أن السؤال الذي يدور في أذهان الجميع الآن: «وما هذه الثقة التي تؤكد لكِ أنه سيأتي خلفك»؟

ولكن صدقًا لا أعرف، ولكن هو إحساسي كأنثى يؤكد لي أنه لن يقبل إهانته بسهولة، وسيحاول أن يعاود مرة أخرى اغتصابي؛ ليثبت لي رجولته، وأنا لن أخسر شيئًا بالتأكيد، فإن حاول وفشل، سأنتصر انتصارًا يشفي كل ما مر بي من أحزان. وإن حاول ونجح، فماذا سأخسر؟ فأنا خاسرة منذ بدأت في سرد حكايتي.

لكن هل أخبركم بشيء آخر يشعرني ببعض من الطمأنينة؟ أنا لا أصلح في تلك الأيام لأغتصب؛ فأنا لدي ظروف تمنعه مني رغمًا عنه، فلتدعوا لي.

حزمت حقائبي ووضعتها أمام الباب؛ حتى يخيل إليه أنني كنت أتأهب للرحيل، وانتظرت دقائق مرت كالساعات، ومن بعدها دقائق أخرى. ذهبت إلى النافذة لاستكشاف الشارِع بالخارج من وراء ستار النافذة، دقائق تمر وتمر وتمر حتى يئست من مجيئه، لقد كنت مخطئة حين اعتقدت أني قد أثرت جنونه بإهانتي له، فلترحلي يا چاسمين إلى الأبد كما أخبرتِه.

ذهبت إلى باب شقتي وألقيت نظرة أخيرة على المكان من حولي، ثم فتحت الباب لأرحل فانتفضت رعبًا؛ لقد كان أمامي مباشرة، فخطوت خطوة للخلف بفزعِ، فلقد فاجأني بعد أن يئست من حضوره، فقلت له متلعثمة: «ما الذي أتى بك إلى هنا»؟

كلماته صدرت منه هادئة عكس ما يرتسم على وجهه من غضب: «أليس من الذوق أن تدعيني للدخول أولًا»؟ قالها وهو يدخل بالفعل؛ فدفعته بجسدي وأنا أخطو للخارج، قائلة له:
«إذًا فلتدخل أنت؛ فهي شقتك بالأصل وأنا كنت راحلة منها على أي حال».

حال بيني وبين الخروجِ دافعًا بي أمامه للداخل، ثم أغلق الباب وقال: «لن ترحلي إلا عندما أقول لكِ أنا؛ فلي معك حديث لم ينتهِ، فلنكمله بهدوء».

ثم أشار إليّ لأجلس معه بالأنتريه الموجود بالصالة، تقدمني وجلس واضعًا ساقًا على الأخرى، وظللت أنظر إليه في ريبة من هدوئه، وقلت له: «لم يعد بيننا حديث يا فريد، لقد انتهى كل شيء، فدعني أذهب إلى سبيلي رجاءً، فلدي سفر إلى الإسكندرية ورحلة بحث عن عائلتي، فلا تعطلني».

قال: «لن أعطلك كثيرًا؛ فلست أملك الوقت الكافي لأضيعه معك، فلتجلسي لنتحدثَ قبل أن ترحلي».

امتثلت لرغبته وكدت أن أجلس، لولا أن سألته فجأة: «إن كنت ضيفًا عندي فلا بد أن أقدم لك واجب الضيافة، فماذا أقدم لك يا فريد باشا؟ لدي شاي وقهوة، وربما عصير بالثلاجة، أنت ورزقك».

فأشار لي أنه لا يريد شيئًا قائلا: «لا أريد شيئًا، أريدك أن تجلسي فقط»، فقلت له بلا مبالاة وأنا أدخل إلى مطبخي: «وهل أبدو لك بخيلة؟ سأصنع لك قهوة تركية، لعلها تترك لك أثرًا طيبًا لمعرفتي يوما ما»، ودخلت بالفعل ولم أترك له فرصة ليمنعني، وصنعت

القهوة ووضعتها على صينية التقديم ومعها كوبٌ من الماء وكأنه ضيف حقًّا مُرحب به، وجلست بعيدًا عنه أنتظر ما سيخبرني به.

ارتشف من القهوة أول رشفة، ثم قال: «چاسمين، أنا لم يُهنِّي أحد من قبل كما فعلتِ أنتِ اليوم، وهذا ما أدعوه سبقًا يحسب لكِ».

ثم ارتشف الرشفة الثانية من قهوته، وأكمل قائلا: «أهنئكِ على دخولك التاريخ بهذا السبق».

أعلم أن وراء كلامه الهادئ هذا عاصفة وبركان يكاد أن يثور في أي لحظة، ولكني تعمدت أن أهدئ هذا البركان لأطول وقت ممكن حتى ينتهي من قهوته للنهاية، فقلت له وعلامات الأسف على وجهي:

«أنا لم أقصد إهانتك يا سيد فريد، ولكن كنت أتمنى لو أنك علمت من نفسك لماذا لم أترك الشركة وأهرب كما سألتني، وكنت أود لو تعلم من نفسك لماذا كنت حريصة على أن أثبت لك أني فتاة شريفة ولم يمسسني بشر قبلك، فلماذا في اعتقادك كنت أريد أن أثبت لك هذا؟ ألم تسأل نفسك ذلك السؤال أبدًا»؟

نظر فريد إليّ نظرة عدم الفهم، وارتشف الرشفة الثالثة من قهوته وتبعها برابعة، ثم قال: «لا أفهم، ماذا تقصدين»؟

قلتُ: «وهذا هو ما جعلني أثور عليك؛ فأنت لا تفهم أي شيء»، قال وهو يرتشف آخر قطرة من قطرات فنجان القهوة اللذيذة: «أتقصدين...» قاطعتُه: «نعم أقصد، ولكنك لم تفهم، لقد أحببتك منذ رأيتك، وسامحتك على ما فعلته بي لأنني أحببتك».

ثم وقفت واتجهت أنا نحوه وانحنيت إلى أذنه وهمست له بها: «وأحببتك أكثر وأكثر عندما أنهيت قهوتك اللذيذة الآن، فأنت الآن والآن فقط يا أقذر خلق الله ملكي وحدي، وسأصنع بك مثلما صنعت بي، وسأدمر لك حياتك كلها، وستتذكرني إلى أن يحين أجلك أو تموت قهرًا».

ثم ضحكت لأول مرة منذ سنين، وأنا أراه أمامي ينظر لي ولا يستطيع الوقوف.

اعتدلت من جواره وذهبت إلى مطبخي، وأحضرت كيسًا من أربطة بلاستيكية قوية تسمى "أفيز"، وأكملت قائلة له بسخرية: «لقد وضعت لك بالقهوة حبوبًا تصيب الجسد بما يشبه الشلل المؤقت، فلن تستطيع مقاومتي لحين أنتهي من تقييدك وتجريدك من ملابسك سيد فريد، فمرحبا بك وأتمنى لك قضاء يوم رائع».

هنا بدأت تقييد قدميه وأحكمت قيدهما، ونزعت عنه حذائه.

آه يا ربي، لقد كدت أنسى نرمين!

ناديتُ عليها: «نرمين، تعالي ساعديني يا عزيزتي؛ فلقد جاءنا ضيف عزيز».

خرجت نرمين من حجرتها وعلى وجهها الرضا وقالت: «أحسنتِ يا چاسمين».

ثم عانقتي بحب، وبفرحة شديدة قلتُ لها: «أشكرك يا نرمين، فأنتِ من ساعدتني، لولاكِ ما علمت نقاط ضعفه، وما استطعت أن أستدرجه إلى هنا».

ردت نرمين: «تشكرينني على ماذا يا حبيبتي؟ مصالحنا مشتركة، لقد دمر لي حياتي مثلما دمرك؛ فلا تضيعي الوقت هيا لنتممَ ما بدأناه أولًا».

التفتنا إليه وأكملنا تقييده جيدًا، ثم حملناه بصعوبة إلى غرفة النوم، جردناه من كل ملابسه، وقيدناه في سرير النوم زيادة في التأكد من عدم استطاعته فك قيده ولا الهروب منا، وتركناه حتى يفيق من نومه المؤقت، وجلسنا بالقرب منه نراجع ما خططنا له منذ عدتُ من عند الطبيبة، بعد أن أخذت التقرير الذي يؤكد عذريتي، وما أن عدت به إلى البيت كانت نرمين بانتظار عودتي، فقالت لي نرمين: «لمَ تأخرتِ يا صديقتي؟ هل طمأنتك الدكتورة على نفسك»؟

قلتُ لها: «الحمد لله، لقد طمأنتني بما يستحق أن أصلي له ركعتين شكرًا لله، سأصلي وأغير ملابسي وأعود إليكِ»، ثم وضعتُ حقيبتي والتقرير على المنضدة ودخلت غرفتي لأشكر ربي.

أمسكت نرمين التقرير بعفوية وفضول، وقرأت ما به، وظهرت علامات التعجب على وجهها وانتظرت عودتي، وما أن خرجت من غرفتي حتى بادرتني بتساؤل: «ما هذا التقرير يا سهام؟ هل كنتِ تشكين في عذريتك؟ أنتِ تخفين عني أمرًا يقلقني عليكِ، فما هو؟»

جلست على الأريكة، وما لبثت أن انسالت من عينيَّ دمعات غزيرة منهمرة؛ فقد فاض بي وأردت أن أشارك أحدًا فيحمل السر معي، فأسرعت إلي نرمين وضمتني إلى صدرها بحنان أم كنت قد فقدته منذ غرقت أمي.

وقالت لي: «ما بك يا سهام؟ يا حبيبتي احكي لي، لعلي أستطيع مساعدتك».

فقلتُ بصوت منكتم: «أنا لست أدعى سهام يا نرمين، أنا اسمي جاسمين».

وقصصت لها حكايتي حتى لحظة قراءة ذلك التقرير.

كانت نرمين مستمعة جيدة، وأزاحت عن صدري همًّا ثقيلًا،

ولكنها فاجأتني بأن فريد فعل معها نفس ما فعله بي، ولكن بطريقة مغايرة للأحداث، وأنه سبب تواجدها بالقاهرة بعد أن غرر بزوجها الذي مات قهرًا بسببه، ومنذ وفاته وهي مع فريد تعمل لديه بالشركة في قسم الحسابات؛ فهي خريجة تجارة، وأوقات كثيرة تكون ملاذًا لرغباته ونزواته، وهنا فقط اجتمعنا على أن ننتقم منه، فأخبرتني بنقطة ضعف فريد الوحيدة، وهي أنه لا يتقبل الإهانة من أي شخص مهما كان من هو، وأنه يتصرف بعدوانية شديدة ويصبح همجيًا بلا تفكير ولا وعي لما يفعله لرد اعتباره، فكانت تلك نقطة البداية، والبقية تأتي بعد أن يفيق من نومه.

وبالفعل أفاق فريد وكان رد فعله عندما وجد نفسه مقيدًا عنيفًا، حيث أراد أن يتخلص من قيوده ولم يستطع، فبدأ بالتهديد والوعيد؛ فأسرعت نرمين بوضع شريط لاصق على فمه وهي تقول له: «اهدأ قليلًا لتستطيع سماع ما سنقوله لك إن كنت تريد نجاتك من هذا الوضع، فنحن كريمتان معك حتى الآن ولم نمسك بسوء؛ فلا تجعلنا نتسرع في اتخاذ قرار يجعلك تندم كثيرًا»، فأشار برأسه علامة الموافقة.

خرجت من الغرفة ومعي طبق كبير بلاستيك، به بضع أشياء لم يرَها فريد، ووضعتها بالقرب منه ثم تناولت ما به من أشياء.

بدأت في التقاطها غرضًا بعد الآخر متعمدة أن يراها مع التوضيح له كيفية استعمالها، وكان أول غرض أخرجته آلة تصوير ديجيتال، قلت: «طبعًا أنت تدرك ما هذه، إنها رائعة، ماركة معروفة جدًا وجودة التصوير شديدة الوضوح، ولا بد أنك تدرك أن الغرض منها هو تصوير ما سوف يتم، وهذا للتوثيق مثلما فعلت أنت سابقا معي؛ فلقد تعلمت منك كيف أوثق الأحداث المهمة».

وضعتها بجانبي ثم أخرجت سرنجة حقن وقارورة صغيرة للحقن، وقلت: «وتلك الحقنة هي مخدر يستخدم في العمليات الجراحية، فلتكن هادئًا حتى لا تجبرني على استخدامه معك»، وضعتها بجانبي أيضًا، وأخرجت باقي الأغراض بتتابع قائلة: «هذه سكين مطبخ رائعة، ذات نصل رائع، أتمنى ألا أحتاج إليها، وهذه أربطة وقفازات طبية ومطهرات، وهذا الأخير هو جفت مع مقص طبي حاد، فهل تعتقد أني نسيت أي شيء؟ أعتقد لا لم أنسَ شيئًا. هل تريد أن تقول لي شيئًا قبل أن أخبرك بعقابك»؟

فأماءَ برأسه نعم، فنزعت نرمين عن فمه الشريط اللاصق فقال على الفور:

«چاسمين، لماذا كل تلك الأشياء؟ ماذا تريدين أن تفعلي بي؟ هل ستقتلينني»؟

ابتسمت وقلت: «أقسم أني أتمنى موتك كما قتلت أهلي من قبل، وقتلت براءتي وطهري، ولكن للأسف قلبي لا يطاوعني أن أقتلَ نفسًا حرمها الله، ولا أعلم كيف تعيش أنت بدون هذا الإحساس؟ لا تقلق يا عزيزي، لن أقتلك إذا كنت مطيعًا؛ فلا تضطرني لفعل ذلك رجاءً».

قال فريد: «أنا لم أقتل أهلك، ولم أقتل أي إنسان من قبل، أقسم لك»

صرخت: «لا تقسم أيها القذر، وهل تعتقد أن من يقتل هو فقط من يمسك سلاحًا ليقتل به؟ أنت شر يمشي على قدمين! أينما خطوت بقدمك تقتل إنسانًا من القهر مثلما فعلت مع نرمين وزوجها، ألا تسمى هذا قتلًا؟ عندما تصدر أمرًا لرجالك بإغراق اثنين من الناجين معي؛ لأنهما لم يمتثْلا لعرضك الذي لا أعرفه لهما، ورَفضاه؛ فأمرت بإغرَاقهما ونفذ رجالك الأمر، ألا تسمي هذا قتلًا؟ عندما تغرق ألفَ راكبٍ نساءً ورجالًا وأطفالًا بحملهم على سفينة غير صالحة للإبحار؛ لكي تصرف تأمينها لتتكدسَ خزائنك ببضع مليارات ولا تستطيع أن تعيد ميتًا واحدًا منهم للحياة، ألا تسمي هذا قتلًا؟

عندما تغتصب فتيات شريفات، وترمي بهن في جحيم الدنيا بالعار الذي يلحق بهن وكأنك لم تفعل شيئًا يستحق أن تعاقب عليه، ألا تسمي هذا قتلًا؟

عندما تُرشي نفوسًا وتضلل عدالة، وتشتري ذمم رجالٍ ونساءٍ ومسؤولين لتأخذ حقًا ليس لك، ألا تسمي هذا قتلًا؟

أنت لست بشرًا مثلنا، أنت فساد وشر يمشي على قدمين، كل هذا لأنك ذو مال ونفوذ، تتحكم وتضلل وتشتري وتستبيح وتأمر وتنهي، كل شيء مباح لك، كلنا عبيد لديك! تبا لك ولنفوذك وسلطانك!

يا ليتني بلا قلب؛ كنت قتلتك بدلًا من المرة ألف مرة، ولكني سأكتفي بما عزمت عليه. والآن يا فريد، كم تساوي حياتك في نظرك لِتفديها به»؟

أخرجت نرمين دفتر شيكات وقلمًا لفريد الذي كان في ملابسه، وقالت له: «اكتب رقمًا هنا لي، ورقمًا لها لنعلم كم تساوي حياتك التافهة عندك»؟

ناولتُها السكين، واتجهت نرمين إلى يده اليمنى، ونزعت من رسغه قيده، ووضعت القلم بين أصابعه، ووضعت تحت يده الدفتر

ليكتب لنا مالًا لنصرفه من البنك؛ فقال على الفور: «ولمَ لم تخبراني سابقًا أنكما بحاجة إلى المال؟ كنت قد أعْطيتكما إياه دون قيود ولا مقاومة».

ثم ابتسم قائلًا: «كم يكْفيكما من أموال وتتركَاني»؟

قالت نرمين بخبث: «أنا أريد مليونًا فقط، لستُ طامعة في أكثر من ذلك».

فكتب لها الشيك وقال لها: «وأنا أشترى حريتي بأكثر من ذلك، ولكن لكِ ما شئتِ»، ووقعه.

أخذته نرمين وتأكدت من توقيعه الذي تعلمه، وأنه ليس توقيعًا غير معتمدٍ من البنك؛ فهي تعلم التوقيع المعتمد له بحكم عملها بالحسابات، ثم أخرجت له دفترًا آخر لبنك آخر، وقالت: «وهذا البنك، اكتب شيكًا آخر عليه حتى لا يشك البنك لصرف مليُونَينِ، مع مراعاة أنك سوف تخاطب البنك عبر الهاتف ليتم صرف المال لي دون إجراء روتيني للتأكد من صحة الشيك، ولو حدثَ منك أي خديعة ستقوم چاسمين بالتخلص منك».

قال لها بسخرية وهو يوقع الشيك الآخر: «تخطيط إجراميّ رائع يا عزيزتي، أُهنئكما على تقمّص دور الأشرار في الأفلام المصرية القديمة، ولكن أعدكما لن تُفلتا بِفعلتكما تلك».

أخذت نرمين الشيك الآخر وقالت لي:

-سأذهب إلى البنك وأصرف هذه الشيكات، وإذا لم أعُد فلتُكملي ما بدأناه.

- فلتعودي سريعًا؛ فأنا لم أكن أريد تلك الأموال، ولكن بما أنك تريدين ذلك فلا تتركيني وحدي كثيرًا مع هذا القذر.

خرجت نرمين مسرعةً، وغادرت الشقة وتركتني وحيدة معه، وجلست أمامه أنتظر تليفون البنك، فقال لي:

- لست قديسة يا چاسمين؛ فأولًا وأخيرًا اخترتِ المال الذي كنتِ الآن تعِظينني بسببه، وتلعَنينه أمَامي؛ فالكل يا عزيزتي يرغب في المال، والكل يبيع كل مبادئه من أجله مهما كانت تلك المبادئ؛ فلا تتقمصي دور الضحية؛ فكل الناس تبيع كل شيء من أجل المال.

- أنا لا أحتاج هذا المال، إنها نرمين؛ تعتقد أنه حق زوجها الذي جعلته يموت قهرًا وكمدًا بعدما دمرت له شركته الصغيرة، وأفْلسته بجزء من جبروتك ونفوذك، وأنا أريدها أن تأخذ حقها منك كما أريد أنا حقي منك، كل إنسان يبحث عن حقه بطريقته، وهي قد اختارت المال وأنا قد اخترت القصاص؛ فلا تتسرع يا عزيزي؛ فأنا لم أقتص منك بعد.

- وماذا عن حبك لي، ألا يشفع لي عندك؟

ضحكت وأنا أردد قائلة له: «هل صدقت يا فريد أني بالفعل أحببتك؟ أنا لم أشعر يومًا نحوك سوى بالكراهية والحقد لما فعلته معي».

قال فريد:

– وماذا فعلت معك؟ ألم تقولي إنك ما زلتِ عذراء؟ فلما إذًا الكراهية؟

أنت تستطيعين أن تعيشي حياتك كما يحلو لك، تحبين وتتزوجين من أي رجل شئت، ومن سيعلم ما فعلته أنا بك؟ فلتعيشي يا عزيزتي؛ فأنتِ أمام كل الناس فتاة بكر لم يقربها بشر، فما هي مشكلتك معي الآن؟ خذي المال وارحلي وابحثي عن أهلك، واقضي معهم باقي عمرك، وابحثي عن شريك لحياتك، وكل ما تحتاجينه فقط هو ألا تنبشي في جراح ذلك الماضي، ولا تشيري إليه، ولن يعلم به أي إنسان أليس كذلك؟

فقلتُ:

– هكذا أنسى، وهكذا أكذب على من يشاركني حياتي وأخدعه طالما أنه لم يرَني؛ فليس هناك دليلًا على جُرمي؛ فبكَارتي لم أفقدها، والفيديو المصور تخلصت منه، واغتصابي لا شاهد عليه، معك كل الحق؛ لأعيش حياتي وأخدع من أخدع هكذا وبكل بساطة،

حقا إنه ليس غريبًا على شخص مثلك أن يتكلم هكذا، للأسف يا فريد أنت لن تستطيع أن تشعر بما تشعر به الحرة عندما تهان أو تذل، عندما يقوم بسترها الله من فوق سبع سماوات ويهتك سترها شخص تافه مثلك، ويجعلها تتمنى الموت آلاف المرات في اليوم الواحد. تجعلها ترى الاتهام في عيون كل الناس، ولو لم يعلموا عنها أي شيء، تجعلها تكره جسدها لأنها تشعر به وقد تلوث بذنب ملامسته لجسدٍ لا يحل لها، لقد كشفت عورتي واستحْللتها، والحل لكل ذلك بسيط لديك؛

لا بد أن أنسى فقط، ولا أقول لمن يُريد هذا الجسد في الحلال مستقبلا، فهو المغفل، أليس كذلك؟

ولا مانع عندي إذا ما لاحت لي الفرصة أن أعاشر رجلا آخر في غيابه، المهم أنه لا يراني، وكل شيء ينتهي يا فريد إذا كان كل من يستره الله يفعل ما يشاء؛ فاعلم أن كل إنسان له رصيد عند الله من هذا الستر، فكلما سترك الله مرة أنقص هذا من رصيدك عنده، ولا تدري يا مسكين متى سينتهي رصيدك.

هل سينْتهي معك في الدنيا؟

أم سينْتهي عند دخولك القبر؟

أم سينتهى أمام العباد يوم تعرض على الله، ولا تَدري متى سيتم هذا ولا بأي طريقة ستكون فضيحتك ولا أمام من؟ ولذلك ندعو في صلاتنا إن كنت تعلم ما هي الصلاة ونقول: «اللهم استرنا فوق الأرض وتحت الأرض ويوم العرض عليك»، أتمنى أن تكون فهمت أي شيء مما أقوله لك؛ فهذه هي خلاصة حياتنا في هذه الدنيا، لهو ولعب وبينهما ستر من الله يسترنا به.

انظر إلى نفسك الآن، ولترَ معنى كلامي ينطبق عليك، فأنتَ مقيد إلى سرير مجرد من كل ملابسك، عورتك ظاهرة أمامي وأمام نرمين، وبعد قليل سأقوم بتسجيل مقطع فيديو لك يُبث على الإنترنت، وسَيراه من يراه ويُهتك سترك أمام كل الناس.

ألا يؤكد لك هذا أن رصيد الستر الخاص بك عند الله قد نفد، وأنه قد آن الأوان لأن تفضح وتعيش بعارٍ وتنكسر عيناك أمام جميع خلقه؟

يا لها من نهاية قاسية يا فريد!

هل فهمت الآن ما أقصده؟ هل فهمت ما تعايشتُ معه أنا فترة الثلاث سنوات الماضية؟

أظن أنك لم تفهم أي شيء، هذا عن الستر يا عزيزي، وأما

عن رصيدك في القتل والزنا واستحلالِ حرمات الله؛ فله شأن آخر ستعلمه في وقته.

دق الهاتف الخاص بفريد، فنظرتُ إلى هاتفه وقلت: «ها هو موظف البنك يتصل بك؛ فلترد عليه بكل هدوء إن كنت تريد أن تعيش».

فتحت مكبر الصوت وقرّبته من فمه ليتحدث فأتم المكالمة بلا أي خديعة، وأنهى الاتصال، وجَاءته المكالمة الثانية من البنك الآخر وأيضًا أتمَها دون أي خدعة.

وجاءت نرمين إلى المنزل وعلى وجهها سعادة لا توصف، وقالت لي: «الآن أنا معكِ يا صديقتي، فماذا أنتِ صانعة بهذا الرجل»؟

قمت بحركة آلية، واتجهت نحو الأغراض التي أعددتها سابقًا، وأخذت منها الحقنة، وأفرغت بها محتويات القارورة، واتجهت نحو فريد الذي لاحت على وجهه علامات الرعب، وقال لي: «ماذا ستفعلين يا چاسمين؟ أنت طيبة وتعرفين الله جيدًا؛ فلا تؤذيني أرجوك»!

– آسفه يا فريد، لقد حاولت أن أتراجع عن انتقامي منك وأسامحك، ولكن قسمًا بربي لم أستطع.

ثم وضعت الحقنة في وريده، وأفرغت محتوياتها في جسده، وما هي إلا لحظات حتى غاب فريد عن الوعي ودخلَ في سبات عميق على الفور.

أخرجت الحقنة من ذراعه، ثم اعتدلت والتقطت قفازي الطبي وارتديته، ثم أخذت الكاميرا وأعطيتها لنرمين وقلت: «فلتقومي بتصوير ما سأصنعه معه الآن دون أن أظهر بالكاميرا»، تناولت نرمين الكاميرا وبدأت بالتصوير دون أن تظهر وجهي في كادر الصورة، متابعة يدي فقط وأنا أتعامل معِ فريد.

التقطتُ الجفت والمقص ثم بترت له رمز الذكورة لديه.

نعم، بترت له هذا العضو الذي تجرأ به واستقوى على أنوثتي ولم يرحم به ضعفي، «فلتتذَوق يا فريد طعم الذل والهوان الذي أذقتني إياه من قبل، ولتعش باقي حياتك تتوارى من كل النساء وللتذكرنِي أبد الدهر»، قلت ذلك بكل حقد وكراهية.

فقد فريد رجولته وتناثرت دماؤه، ولكنني تعاملت معِ الجرحِ باحترافية حتى توقف النزيف، وربطت بالأربطة الطبية والمطهرات وكأنني خبيرة في تلك الجراحات وانتهى كل شيء في أقل من نصف ساعة.

قمت أنا ونرمين بفك قيوده ووضَعنا بِجواره الهاتف وملابسه وفلاشة بها نسخة من الفيديو المسجل، وأخذنا حقَائبنا والنقود ورحلنا من البيت، وهَبطنا معًا سلم العمارة، ووقَفنا أمام مدخلها ونَظرت كل منا للأخرى وعلت الابتسامة مبسمنا؛ فقد انتهت المهمة بنجاح، وتعانقنا بسعادة غامرة، وحان وقت الرحيل؛ فودعنا بعضنا البعض وتَمنت كل واحدة منا للأخرى التوفيق في حياتها القادمة، وافترق الطريق بنا.

توقفنا على جانبي الطريق، وأخذتُ تاكسي وأخذت نرمين تاكسي آخر وأشرنا بعلامة الوداع ورحل كل تاكسي في طريقه.

اتجهتُ إلى أربعة بنوك وفتحتُ حسابًا في كل بنك بمبلغٍ من المال باسمي حتى أتجنب سؤال من أين لكِ هذا، ورحلتُ بحقَائبي إلى موقف الحافلات لأسَافر إلى الإسكندَرية؛ فأخبروني أن الحافلة ستتحرك في الساعة الرابعة عصرًا؛ فحجزتُ تذكرة وشحنتُ حقائبي بالحافلة، ومن اضطرابي وضعت حقيبة يدي مع الحقائب، ولم أنتبه، وسألتُ عن مسار الحافلة؛ فعلمتُ أنها تذهب إلى محطة المنيب قبل أن تنطلق إلى الإسكندرية؛ فأخبرت السائق: «هل أستطيع أن أركبَ من المنيب؟ فلا زال على موعد مغادرة الحافلة

ساعتين، سأتسوق بالقرب من المنيب وأخشى ألا أستطيع اللحاق بالحافلة في التحرير».

فقال السائق: «نعم، ولكن احْتفظي بالتذكرة سيدتي»؛ فشكرتُه وانصرفت؛ فإن ما دفعني لفعل ذلك هو خوفي من أن يفيق فريد ويتصل بأي أحد فيلحق بي إلى هذا الموقف؛ فهو أول ما سيخطر على بال من يبحث عني من رجال فريد إذا أبلغهم أني مسافرة إلى الإسكندرية، فقررت أن أركب الحافلة من آخر موقف يقف فيه قبل أن ينطلق إلى الإسكندرية؛ فترجلتُ وركبتُ حافلة كانت تحمل رُكابًا لموقفِ المنيب لأنتظرَ الحافلة هناك، فمعي تذكرتي وسأنتظرُه هناك. وعند انطلاق الحافلة انحرف بجميع الركاب أمام النقل ويا له من حادث، دارت الدنيا كلها بي، وشعرت بآلام حادة في جميع جسدي وبين كل تلك الآلام سمعتُ صوتَ رجلٍ يضع رأسه على صدري، ويصرخ قائلًا: «سيدة بها نبض هنا مصابة، تنفسها ضعيف».

ففتحت عيناي فوجدتك أمامي وكأنني في حلم ثم غبت عن الوعي.

تلك هي يا عادل نهاية قصتي وإلى هنا أعتقد أنه حان وقت الرحيل.

الخاتمة

الفصل الثامن عشر

نهاية البدايات

قام عادل من مجلسه أمام چاسمين دون أن يتكلم، واتجه نحو البحر، ووقف يتأمل أمواجه المتلاحقة، وعقله يثور كَبُركان يقذف بحممه في كل الاتجاهات بغضب عارم لا يدري بماذا يعقب على حكاية چاسمين، ولا يدري كيف يواجهها!

أيتعَامل معها على أنها إنسانة معذبة أخذت بثأرها ممن ظلمها أم على أنها مجرمة بحق إنسان مهما كانت جريمته؟ فهو لم يتخيل أبدًا أن يكون انتقامها بمثل تلك البشاعة والتهور، لو كانت قتلته لكان أهون الأمور، لو كانت تركت عقابه لرب العالمين لعظُمت في عينيه وزاد تعاطفه معها لسماحة قلبها، ولكنها تجردت هي الأخرى من إنسانيتها، وارتكبت جرمًا لا يقل فظاعة عما فعله بها فريد.

قامت چاسمين التي التزمت الصمت تاركة لعادل خلوته بأفكاره، واتجهت نحو الڤيلا وصعدت إلى غرفتها واتجهت نحو هاتف المنزل الأرضي، ورفعت سماعة التليفون، واتصلت على رقم ما، ثم قالت بعد انتظار: «ألو».

وانتظرت ردًا، ثم قالت: «أنا چاسمين».

عادل ما زال يصارِع عقله وقلبه أمام أمواج البحر، ولا يبدو أنه اهتدى إلى قرار يرتاح له ضميره ويرتاح له قلبه وعقله، «الأمر حقًا صعب، لن أستطيع أن أفكر فيه الآن، أنا أحتاج إلى وقتٍ طويل لدراسة كل ما حدث»، هذا ما قاله عادل لنفسه أخيرًا ثم عاد إلى المنضدة فلم يجد چاسمين؛ فبحث عنها لعلها تكون على شاطئ البحر فلم يَجدها؛ فعاد إلى الڤيلا فوجدها تجلس على الأرجوحة بالحديقة وبجوارها حقيبتها، فاقترب منها ثم قال لها: «متى ذهبتِ؟ أنا لم أنتبه لك يا چاسمين».

ثم أشار إلى الحقيبة بجوارها وتساءل: «ولمَ تضعين تلك الحقيبة بجوارِكِ، هل تريدين الرحيل حقًا»؟

ردت چاسمين وعلى وجهها ابتسامة واهنة: «لقد أخبرتك يا عادل من قبل أنني لست الفتاة التي تصلح لك، أنت رجل رائع تستحق كل تقدير واحترام، وسأذكرك دائمًا ولن أنساك طوال العمر، ولكن الآن لا بد من مواجهة الحقيقة، فقد انتهت قصتي ولم أُخفِ عنك أي شيء، وقد كنت أستطيع أن أكذب كما نصحني فريد، ولكن أنا لست كاذبة ولا خائنة، وأنت رجل لا تستحق مني الخيانة،

ولا ينبغي لي أن أكذب عليك لأسرق منك قلبك، أنت رجل طاهر؛ فجزاك الله عني كل خير، ولتعلم أنك أول رجل يدق له قلبي حبًا وأنك آخر رجل يدق له قلبي، فلقد أخبرتك أثناء حديثي معك أنني حرّمت الحب والزواج على نفسي، فليس ذنبك كإنسان أن تتحمل أخطاء الآخرين، ولا ذنب أي شخص آخر غيرك أن يربط مصيره بي، فأنا اخترت طريقي الذي سأمضي فيه وحدي، أمهلني فقط نصف ساعة أنتظر فيها السيارة التي أنتظرها لتقلَنِي إلى الإسكندرية لاستلام حقائبي من أمانات الموقف، فقد تيقنت من أنها ما زالت موجودة، وسأمضي إلى شريكتي في تلك الحياة، صديقتي نرمين؛ فنحن مكتملتان معًا، وسنطوي الماضي معًا بكل أحزانه وبكل مرارته؛ فنحن البريئتان المذنبتان».

طأطأ عادل برأسه خجلًا وقال لچاسمين: «وأنا لم أعرف يومًا الحب إلا حينما دق قلبي لك به، وسأظل أحبك حتى آخر العمر أيتها المذنبة البريئة، وسامحيني إن كنت لا أستطيع أن أفاضل بين قلبي وعقلي؛ فالأمر صعب، صعب للغاية يا چاسمين، فلا أنا أستطيع أن ألومك ولا أستطيع أن أسامحك، فلتطمئنيني عليك دائمًا وأبدًا فأنا من الآن سأكون لك نعم الأخ والصديق؛ فلتلجأي لي دائمًا

عندما تضيق عليك سبل الحياة يا من أعشقها ولن أنساها».

جاءت السيارة التي ستقل چاسمين إلى الإسكندرية، وأطلقت نفيرها معلنة لچاسمين وعادل نهاية قصتهما.

حملت چاســمين حقيبتها واتجهت نحو السيارة، وفتحت باب الســيارة، والتفتت إلى عادل وقالت له وعلى وجهها ابتسامة هادئة: «الوداع يا أخي الرائع».

وأشارت بيديها إليه الوداع؛ فنظر إليها عادل وأشار لها كذلك، وقال: «السلام لك أختي الرائعة».

ركبت السيارة وانطلقت إلى بدايات جديدة لكلا منهما.

*****

(الخاتمة من بعد ومن قبل)

وبعد مرور ستة أعوام على تلك النهاية وذلك الوداع، استيقظ عادل فزعًا في الثانية من صباح أحد الأيام على صراخ طفل رضيع يرقد بجواره على السرير؛ فنادى بصوت عالٍ على زوجته قائلا: «أين أنت يا هانم؟ تعالي؛ فالولدُ يبكي وأنا لدي عمليات باكرًا، أين أنت»؟

فدخلت عليه زوجته چاسمين وقالت له: «يا عادل، احمله قليلا ليهدأ، هل أقسّم نفسي إلى قسمين؛ فجومانا في الغرفة الأخرى تبكي هي الأخرى وتريد النوم بجوارك، وتسألني لماذا محمد هو من ينام مع أبي وأنا لا؟

فلتذهب وتنم أنت بجوار ابنتك ولتدعني أنا أنام مع محمد».

قبل ست سنوات أيضًا من تلك النهاية في شركة فريد، كان يدور في أرجاء مكتبه كالثور الهائج وعلى وجهه علامات الغضب الرهيب، فيطرق الباب من الخارج؛ فيأمر من بالخارج بالدخول بصوت أشبه بالصراخ:

–ادخل!

فيدخل أحد حراسه وعلى وجهه علامات الخيبة والتردد، فيقف على باب المكتب دون أن يتقدم نحو فريد الثائر، ويطأطئ الحارس رأسه فيبادره فريد بصراخه قائلًا بأعلى صوت لديه:

–لا تخبرني أنكم لم تعثروا عليها.

فيقول الحارس بتلعثم:

–لم نترك شبرًا لم نبحث فيه، يبدو أنها قد سافرت للخارج...

فقاطعه فريد بحدة:

–خارج أو داخل، أنا أريدها بأي ثمن!

ثم نظر إلى سقف الغرفة ودوي صوته أشبه بالرعد في أرجاء الغرفة كلها:

-أريدها أمامي، أريد أن أشرب من دمائها وهي على قيد الحياة، أريد أن أمزق من جسدها كل يوم قطعة حتى تتمنى الموت ألف ألف مرة في اليوم الواحد ولن أرحمها.

ثم أشاح بيده للحارس ليخرج من مكتبه وهو يقول له:

- ثروتي ملكٌ لمن يحضرها لي أتفهم؟ اخرج ولا تعد إلا بها.

يخرج الحارس مسرعًا وينهار فريد على أقرب مقعد أمامه، وينظر إلى أرض الغرفة وتنهمر من بين مقلتيه الدموع على ما أصبح عليه من ضياع.

تمت بحمد الله

رواية لا تعشق لعنتي

نلتقى معًا..

فى الجزء الثانى بمشيئة الله.

طارق عبد الفتاح

الكاتب في سطور:

- طارق عبد الفتاح محمد.
- من مواليد محافظة السويس.
- يعمل بشركة المشروعات البترولية والاستشارات الهندسية (بتروجت).
- للتواصل مع الكاتب عبر موقع التواصل الاجتماعي (فيس بوك) من خلال الرابط التالي.

https://www.facebook.com/tarekl.aboessraa

أو عن طريق البريد الإلكتروني من خلال الرابط التالي..

tarekaboessraa@gmail.com

الفهـرس

رقم الصفحة	المـوضــوع
5	الإهـداء..................................
9	الفصل الأول: صالة وصول............
13	الفصل الثانى: (الحادث)................
17	الفصل الثالث: (الغيبوبة)................
25	الفصل الرابع: ماهذا الشيء؟.............
29	الفصل الخامس: حكاية أنثى...........
41	الفصل السادس: مقدمة ما قبل الكارثة.........
47	الفصل السابع: المأساة..................
55	الفصل الثامن: وتستمر المأساة..........
61	الفصل التاسع: يا ليتها لم تشرق الشمس........
67	الفصل العاشر: رأيتك هل تصدقينى؟.........
73	الفصل الحادى عشر: الكابُوس..........
81	الفصل الثاني عشر: الفاسدون..........
97	الفصل الثالث عشر: حديثٌ مع النفسِ.......
109	الفصل الرابع عشر: اعتراف............
119	الفصل الخامس عشر: دعوة إلى الساحل........
131	الفصل السادس عشر: عودة للأحداث........
141	الفصل السابع عشر: انتقام أنثى جريحة........
181	الفصل الثامن عشر: نهاية البدايات.........
188	الكاتب فى سطور...............